

فنون الازدب العربى

الفن الفنى

٢

الرّماء

بقلم

الدكتور شوقى ضيف



دار المعارف

0007102



Bibliotheca Alexandrina

الرفاء

فنون الأدب العربي

الفن الغنائي

٢

البرقاء

بقلم

الدكتور شوقي ضيف

الطبعة الرابعة



دار المعارف

الناشر: دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل القاهرة ج . م . ع .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الرثاء من الموضوعات البارزة في شعرنا ، إذ طالما بكى شعراؤنا من رحلوا عن دنياهم وسبقوهم إلى الدار الآخرة ، وهو بكاء يتعمق في القدم. منذ وُجدَ الإنسان ، ووُجدَ أمامه هذا المصير الحزن : مصير الموت والفناء الذي لا بد أن يصير إليه ، فيصبح أثراً بعد عين ، وكأن لم يكن شيئاً مذكوراً .

ولكل أمة مرآئها ، والأمة العربية من الأمم التي تحتفظ بثرات ضخم من المراثي ، وهي تأخذ عندها ألواناً ثلاثة ، هي النذب والتأبين والعزاء . أما النذب فبكاء الأهل والأقارب حين يعصف بهم الموت ، فيئن الشاعر ويتفجع ، إذ يشعر بلطمة مروعة تصوب إلى قلبه ، فقد أصابه القدر في ابنه أو في أبيه أو في أخيه ، وهو يترنح من هول الإصابة ترنح الدبيب ، فيبكي بالدموع الغزار ، وينظم الأشعار ييث فيها لوعة قلبه وحرقة . وقد ينظر فيرى الموت مطلاً نُصِبَ عينيه ، وهو ينحدر راغماً إلى حفرة ، ولا ناصر له ولا معين ، ويصبح ولا ينفعه صياحه ، ففتمُّ الهاوية يقترب منه ويوشك أن يلتقمه ، فيبكي ويلحن بكاءه على قيثارة شعره تلحيناً مشجياً كله آلام وحسرات .

والشاعر لا يندب نفسه وأهله فحسب ، بل يندب أيضاً من يتزلون منه منزلة النفس والأهل ممن يحبهم ويؤثرهم ، ومرآئ الشيعة من خير الأمثلة التي تصور ذلك ، إذ نجدهم يرسلون الدمع مدراراً كأنه لا يريد أن يجف ، وتسيل كلماتهم وأشعارهم الحزونة ، وكأنها تسيل من جروح لا ترقأ في القلوب والأفئدة . ومثل مرآئ الشيعة مرآئ الدول ومرآئ الأوطان حين تسقط مهيضة

الجناح في يد الأعداء ، فينوح عليها الشعراء مصورين محنتها الكبرى وكارثتها العظمى .

وليس التأين نواحاً ولا نشيجاً على هذا النحو ، بل هو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص ، إذ ينجرّ نجم لامع من سماء المجتمع ، فيشيد به الشعراء منوهين بمنزلته السياسية أو العلمية أو الأدبية ، وكأنهم يريدون أن يصوروا خسارة الناس فيه . ومن هنا كان التأين ضرباً من التعاطف والتعاون الاجتماعي ، فالشاعر فيه لا يعبر عن حزنه هو وإنما يعبر عن حزن الجماعة وما فقدته في هذا الفرد المهم من أفرادها ، ولذلك يسجل فضائله ويلجّ في هذا التسجيل وكأنه يريد أن يحفرها في ذاكرة التاريخ حفراً حتى لا تُنسَى على مر الزمن .

والعزاء مرتبة عقلية فوق مرتبة التأين ، إذ ترى الشاعر ينفذ من حادثة الموت الفردية التي هو بصدها إلى التفكير في حقيقة الموت والحياة . وقد ينتهي به هذا التفكير إلى معان فلسفية عميقة ، فإذا بنا نجوب معه في فلسفة الوجود والعدم والخلود . ومردّه هذا كله أن الحياة ظل لا يدوم . عبارة يرددها الشاعر الجاهلي ويحللها الشاعر العباسي ، وما يزال الشعراء يحللون فيها متحدثين عن الخلود أو عن الفناء .

وتلك هي ألوان الرثاء في شعرنا حاولنا أن نصورها وأن نضم بديتاتها إلى نهاياتها في خط طويل من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث . ولم تعرض ذلك في تفصيل ، وإنما عرضناه عرضاً مختصراً بقدر ما تسمح به حلقة قصيرة في هذه السلسلة التي نتحدث في إيجاز عن فنون شعرنا الغنائي ، والله الهادي إلى التوفيق .

القاهرة في ٢٨ من مارس سنة ١٩٥٥

شوقي ضيف

تمهيد

١

الرثاء في أدبنا العربي

عرف العرب الرثاء منذ العصر الجاهلي ، إذ كان النساء والرجال جميعاً يندبون الموتي ، كما كانوا يقفون على قبورهم مؤبّنين لهم مُشّنين على خصالهم ، وقد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت ، وأن ذلك مصيرٌ محتوم .

والصور التي بين أيدينا من هذا الرثاء صور راقية ، إذ نراها تعبر عن شعور عميق بالحزن والألم ، ومثل هذا التعبير تسبقه مراتب كثيرة من تعبيرات ساذجة عن الموت والموتى . ولكن هذه التعبيرات لا نجدها في الشعر الجاهلي ، لأنه كان قد فارق المراحل الأولى ، وانتهى إلى مرحلة فنية راقية .

ولا نرتاب في أن الرثاء بدأ عند العرب كما بدأ عند كثير من الأمم الأخرى بصورة تشبه أن تكون سخرًا حتى يطمئن الميت في مرقده ، ولا تصيب روحه الأحياء من ورائه بشرٌ ، ثم أخذ يفقد هذه الغاية مع الزمن ، وما زال حتى انتهى إلى الصور الجاهلية من الإفصاح عن إحساس الناس العميق بالحزن قبيل الموتى ، ومحاولة ذكرهم بتمجيدهم وبيان فضائلهم التي ماتت بموتهم ، مع التفكير في القدر وقصور الناس أمامه ، وعبثهم ولّعبيهم بجياتهم وموتهم .

وقد يكون من أقدم صور الرثاء عندهم ما نقش على قبور الأقبال والأذواء في اليمن والأمراء في الحيرة وعند الغساسنة في الشام ، فعلى قبورهم كانوا يكتبون أسماءهم وألقابهم تخليدًا لذكراهم وتمجيدًا لأعمالهم ، وكأنّ هذه هي الصورة الأولى للتأبين والإشادة بفضائل الميت ، على أنها صورة ساذجة . أما الصورة الجاهلية للتأبين فصورة معقدة ، لا بما فيها من طول فحسب ، بل بما فيها

أيضاً من وسائل فنية كثيرة ، إذ نرى شعراء الرثاء يهتمون بقوالب رثائهم وصيغته وينوعونها تنوعاً واسعاً ، كما نجدهم يهتمون بصورهم واستعاراتهم وتشبيهاهم ، مع العناية التامة بموسيقاهم وأوزانهم والملاءمة بين أنغامهم وشعور الحزن الذي يتعمق قلوبهم وأفئدتهم .

وكان يساهم في هذا الفن النساء والرجال ، بل ربما كان للنساء الحظ الأوفر من القيام عليه ، إذ كنَّ هن اللاتي يَقُصْنَ على نذب الميت أياماً ، بل ربما امتد قيامهن عليه سنوات ، وكنَّ يَخْلُقْنَ شعورهن ويلطمن خدودهن بأيديهن وبالنعال والجلود أحياناً . وقد يقمن بذلك في مجالس القبيلة وعلى القبور وفي المواسم العظام كوسم عكاظ .

وطبيعي أن يتفوق النساء على الرجال في نذب الموتى والنواح عليهم ، لأن المرأة أدق حساً وأرق شعوراً ، وأيضاً فإن حياة الرجال في العصر الجاهلي كانت تقوم على القتل وسفك الدماء والتفاخر بالشجاعة والبطولة ، فكانوا يأنفون أن يقعدوا للبكاء وذرف الدموع كالنساء ، بل لقد ذهبوا يظهرن التجلّد والصبر على من يموت منهم ، يقول عمرو بن معد يكرب :

كَمْ مِنْ أَخٍ لِي حَازِمٍ بَوَّأَتْهُ يَبْدَى لَخْدَا
أَعْرَضْتُ عَنْ تَذْكَارِهِ وَخُلِقْتُ يَوْمَ خُلِقْتَ جَلْدَا

على أن الرجال لم يكونوا جميعاً مثل ابن معد يكرب ، فقراءه كثيرون كانوا يندبون وينوحون ، وخاصة على أبنائهم وأفلاد أكبادهم .
ونَدَبُ الموتى والنواح عليهم هو الصورة الأولى في الرثاء الجاهلي . ونجد بجانب هذه الصورة صورة ثانية من تأيين الميت وعند فضائله والثناء على خصاله والإشادة بصفاته . وتكثر هذه الصورة في تأيين الأصدقاء والأشراف ، بل قد نجد لها في رثاء الإخوة . وربما كان السبب في ظهورها ثم شيوعها أن كثيراً ممن كانوا يرثونهم كانوا يُقْتَلُونَ في حروبهم الدائرة ، فأرادوا أن يبينوا عِظَمَ المصيبة والخسارة بفقدهم . وترافق هاتين الصورتين صورة ثالثة من العزاء والصبر

على نواذب الدهر وحيدانه ، فالدنيا دار فراق لا دار خلود وبقاء ، وكل نفس فيها ذائقة الموت ، فالموت حوض يرده الجميع ، وليس أمام الناس إلا الاستسلام للأقدار وما يأتي به القضاء .

ولما انتهت دولة المناذرة في الحيرة رثوها ، واستخرجوا منها العبر والعظات على أن كل ما في الدنيا زائل وأن البكاء لا يرد هالكاهلك ولا ميتا مات . فالأقدار بيدها كينانتها وقوسها ، ولا تزال ترمى بالسهام الأفراد والجماعات والقبائل والدولاب .

وهذه الصور الجاهلية للرثاء استمرت في أدبنا العربي مع عصوره المختلفة ، تارة تنمو وتارة تتطور ، تحت تأثير نموّ العقل العربي من جهة ، وتطور حياة العرب واختلاف الأحداث عليها من جهة ثانية ، ولكنها في مجملها ترتد إلى هذه الصور الجاهلية ، وتشتق منها كما يشتق الفرع من أصوله .

٢

في الآداب العالمية

الرثاء يقترن بالموت ، وليس في العالم أمة لم تعرف الرثاء كما أنه ليس فيه أمة لم تعرف الموت ، فالرثاء وجد عند كل الأمم والشعوب بادية وراقية متحضرة . ونحن نجد صوراً مبثوثة منه في الأدب الفرعوني القديم ، تارة منفصلة ، وتارة متصلة ببعض القصص كقصّة الآلهة : أوزيريس وسيت وإيزيس ، فإنه حين اعتمدى سيت على أخيه أوزيريس وقطعه إرباً ، وألقى به في صندوق باليم بكتته إيزيس أخته وزوجته بكاء حاراً ، وكان المصريون يبيكونه معها في أعياده من كل غمام . ولا ريب في أن ما نراه الآن في المآتم المصرية من « تعداد » النساء ولطمهن وتلطيفن وجوههن ورعوسهن بالطين يرجع إلى أقدم العصور ، ونفس تقاليدنا في الاحتفال بالموتى والعزاء فيهم ، كل ذلك فيه آثار من آباءنا الأولين .

والرثاء مكان بارز في الشعر اليوناني القديم ، إذ اشتهر به شعراء مختلفون مثل أرخلوكوس وسافو وسيمونيدس ، وينبغي أن نشير هنا إلى أن كلمة « إلجى Elogy » اليونانية التي تطلق عند الغربيين المحدثين على المراثية لم تكن تطلق هذا الإطلاق الحديث عند اليونان ، بل كانت تطلق على وزن خاص من أوزان الشعر الغنائي ، وقد يكون موضوعها سياسة أو أخلاقاً أو غير ذلك من موضوعات . على كل حال عرف اليونان القدماء الرثاء وشاع عندهم ، ونقله عنهم الرومان بين ما نقلوه من فنون شعرهم وألوانه المختلفة .

ومعروف أن الأدب الغربي الحديث احتذى الأمثلة اليونانية والرومانية ، ومن هنا شاع فيه الرثاء على نحو ما شاع عند اليونان والرومان ، فإذا سرنا مثلاً مع الشعر الإنجليزي وجدنا تشوسر « أبا هذا الشعر » ينظم قصيدته الطويلة في زوجة « الدوق لانكستر » وقد سماها « كتاب الدوقة » . وما زال الشعراء الإنجليز ينظمون مراثي مختلفة حتى بلّغهم ملتن بمراثيته لسيداس « Lycidas » وفيها يرثى رفيقاً من رفاقه في الجامعة ابتلعه اليم ، وسماه باسم رينى هولسيداس ، ونحا بقصيدته فيه منحى الشعر الرينى عندهم . ومن أروع المراثي الإنجليزية أدونس « Adonais » لشلي ، وهي في رثاء الشاعر كيتس الذي مات في ريعان شبابه ، وأدونس في الأساطير الإغريقية شاب جميل وقعت في شباك جماله فينوس ، فاتخذته شلي رمزاً لصاحبه . ولتيسون مراثية طويلة في صديق له سماها في الذكري « In Memoriam » وقد نسج فيها أفكاراً رائعة عن الحياة والموت . ومن المراثي الإنجليزية البديعة مراثية توماس جراي وقد دعاها « مراثية كتبت في فناء كنيسة ريفية » وفيها لا يرثى شخصاً بعينه ، وإنما يرثى الطبقة الكادحة في الريف التي يموت أفرادها دون أن يتألموا حظاً من المجد والشهرة .

وفي الأدب الفارسي مراث كثيرة ، وهم يحتلون فيها أمثلة الشعر العربي ، وخاصة مراثي آل البيت ، فلهم فيها روائع لا تحصى . ويلتقى الأدب التركي بالأدب الفارسي والعربي جميعاً في هذا الباب . واشتهر في عصر قريب منا شاعرهم عبد الحق حامد بديوانه « مقبر » وهو يرثى فيه زوجه التي سبقتها إلى الرفيق الأعلى .

وعلى هذه الشاكلة لا توجد أمة مهما أوغلت في البداوة أو صعدت في مراقي الحضارة إلا وهي تبكي موتها بكاء يصور حزن الإنسان على أخيه ، بل لا نبالغ إذا قلنا إنه يصور حزنه على نفسه ، فالقصة واحدة وكل يوم يسقط فصل من فصولها ، ومن يبكي اليوم غيره بصبح بعد قليل من الزمن محمولا إلى نفس المصير .

لفصل الأول

الندب

١

معنى الندب

الندب هو النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية وتذيب العيون الجالمة ، إذ يولول النائحون والبائكون ويصيحون ويعولون مسرفين في النحيب والنشيج وسكب الدموع .

وقد عرف العرب منذ العصر الجاهلي المآثم حيث يجتمع النساء للصياح والعيول على الميت ، وظل ذلك في الإسلام ، إذ أباحه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم محرماً ما كان يقتن به من كتمش للوجوه بالجلود وحلق للرءوس . وإنما أباحه لما فيه من تنفيس عن أهل الميت وشفاء لمصابهم فيه ، ويروى الرواة أنه لما بكى نساء المدينة على قتلى غزوة أحد من ذويهن قال الرسول : « لكن حمزة بن عبد المطلب لا يبيكه أحد » ، وكان قد قتل في هذه الغزوة ، فأصبح سنة في نساء المدينة أن لا يقمن مأتماً على مر العصور إلا بدأن بكاءهن بحمزة عم الرسول .

وفجد النساء الندابات في الجاهلية يؤلفن الأشعار التي يندبن بها موتاهم ، ومع مضى الزمن انفصلت صناعة الندب عن صناعة الشعر ، فأصبح هناك محترفون ومحترفات يعولون في المآثم بأشعار تصنع لهم . والغريص مغنى مكة المشهور في العصر الأموي هو أهم من احترفوا صناعة الندب في عصره ، فكان الشعراء إذا مات شريف أو شريفة صنعوا له أبياتاً ينوح بها ، وقالوا إنه

كان يتفوق تفوقاً ظاهراً على جميع الناحية والبكائين في الحجاز لما امتاز به من صوت حزين يمتلىء بالأسى والشجى .

وكان الغرييض وغيره ينحون على نَقَر الدفوف وضرب الصنوج ، حتى يصبح النواح شيئاً مفرعاً . وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني يزخر بأصوات مخزنة غُسِّيت في المآتم ، وكلها ذات رُقْمٍ موسيقية مضبوطة .

ومهما شَرَقْنَا في العالم العربي أو غَرَبْنَا وجدنا هذا الندب والنواح ، وهو في أصله إنما يكون على الأهل والأقارب ، وقد يبكي الشاعر نفسه ساعة الاحتضار حين يحس بالموت ، وقد كثر له عن أنيابه ، فيفزع إلى بعض أبيات يصور فيها كارثته ، أو يصور ألمه وأحزانه على فراق فردوسه الأرضي .

وقد يتحول هذا الندب والنواح إلى مآتم تدور مع الأعوام والسنين ، وكأنها مآسٍ كبيرة تمثل من حين إلى حين . ويتضح ذلك في رثاء آل البيت ، فقد بكاهم شيعتهم بكاء مرا ، وعقدوا لهذا البكاء مواسم عيونها في أيام السنة ، وأحالوها حزناً وسواداً .

ولم يبك شعراؤنا الأفراد والأُسَر فحسب ، بل بكوا أيضاً الدول التي دالت ، والبلدان التي تُخربت أو امتدت إليها أبلدى الصليبيين أو مسيحيي الأسبان ، فهي الأخرى لها حظها في الندب والبكاء واللوعة والأنين .

٢

نَدْبُ الأهل والأقارب

لعل أقدم صور الندب والنواح في شعرنا العربي هي صورة نَدْب الأهل والأقارب والنواح عليهم . وللمرأة الجاهلية في هذا المجال القيسط الأكبر والنصيب الأوفر ، إذ كانت تندب أباهاً وإخوتها ، فما تزال تنوح على من يتوفى منهم حتف (١) أنفه ، وعلى من يموت قَعَصاً (٢) بالرماح والسيوف ،

(١) الموت حتف الأنف : الموت على الفراش .

(٢) قمصه بالرمح أو السيف : قتله في مكانه .

وما أكثر من كان يموت منهم في حروبهم الدائرة على المرامي .

وكلنا نعرف كثرة أيامهم ووقائعهم في الجاهلية ، وكان كل يومٍ يخلف وراءه صرعى ، وكل صريع تنديه النوادب من أهله وقبيلته . فكان يلطمن ويخمشن وجوههن ويحلقن رموسهن ويشققن جيوبهن ويقرعن صدورهن على من طوّح به الأعداء أو طلّحت به الأقدار إلى مهاوى القيور .

وكتاب « مراثى شواعر العرب » للويس شيخو يصور مدى ما قامت به المرأة في هذا الجانب المظلم الحزين ، إذ كانت هي التي تعبر عن ألم القبيلة وحزنها على أبطالها ، وخاصة عقب الأيام والحروب ، ولم تكن تقصد إلى إظهار الحزن فحسب ، بل كانت تقصد أيضاً إلى إثارة القبيلة على خصومها .

وأشهر من بكت واستبكت في الجاهلية النساء ، إذ قتل أخوها معاوية في بعض غاراته ، فعقدت عليه مأتماً ضخماً من النواح ، وأثار ذلك أخاها صفراً ، فنأثر له ، ولكنه جرح جرحاً بليغاً أدّى إلى وفاته . فعادت إلى نواحيها بأشد ما صنعت على أخيها معاوية ، وكأما سحر صفراً قلبها ، وأشعل صدرها بشعلة من الحزن لا تخبو ولا تهدأ . ولحقت الإسلام . وأسلمت ، ومع ذلك ظلت ذكرى صخر عالقة بنفسها ، وفيه تقول :

قَدَى بَعَيْنِكَ أُمُّ بِالْعَيْنِ عَوَّارُ أُمُّ ذَرَفَتْ أَنْ خَلَّتْ مِنْ أَهْلِهَا الدَّارُ^(١)
كَأَنَّ عَيْنِي لَذِكْرَاهِ إِذَا خَطَرْتُ فَيُضِيَّ يَسِيلُ عَلَى الْخُدَّيْنِ مِذْرَارُ^(٢)
فَالْعَيْنُ تَبْكِي عَلَى صَخْرٍ وَحَقٌّ لَهَا وَدُونَهُ مِنْ جَدِيدِ الْأَرْضِ أُسْتَارُ^(٣)
تَبْكِي خُنَاسُ وَمَا تَنْفَكُ مَا عَمَرْتُ لَهَا عَلَيْهِ رَنِينٌ وَهِيَ مِقْتَارُ^(٤)

(١) العوار : الرمد ، ذرفت : قطرت قطراً متتابعاً .

(٢) الفيض : الماء الغزير ، ومذار : كثير .

(٣) الأستار : الأحجار ، وجديد الأرض كناية عن أنه مات حديثاً ، فأرضه التي دفن فيها لا تزال جديدة لم تبل ولم تندثر .

(٤) خناس : النساء ، مقتار : ضعيفة .

تبكى خُنَّاسُ عَلَى صَخْرٍ وَحَقَّ لَهَا إِذْ رَأَتْهَا الدَّهْرُ إِنْ الدَّهْرُ ضَرَّارٌ^(١)
 بكاء والمدة صُلَّتْ أَلْفَتَهَا لَهَا حَنِينَانِ : إِصْفَارٌ وَإِكْبَارٌ^(٢)
 تَرَعَى إِذَا نَسِيتَ حَتَّى إِذَا ذَكَرْتَ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ
 وَإِنْ صَخْرًا لَتَأْتِيَهُمُ الْهَدَاةُ بِهِ كَأَنَّهُ عَلمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ^(٣)

وواضح أن الأبيات تتمثل بالمشاعر الصادقة ، وهى مشاعر أخت تعمقها الحزن ، بل إن قلبها ليكتوى به ، وهى لا تملك إفصاحا عن حرارته فى أحشائها إلا هذه الكلمات الملتاعة ، فهى تحملها كل ما تشعر به من وجْد ، وترفع بها صوتها وترجعه كترجيع الوالدة من الحيوان على أليفها ، فهى لا تقصد ولا تعتدل ، بل تفرط فى نحيبها وتعلو بنشيجها ونواحها ماوسعها الإفراط والعلو . إن أخاها الذى كان أملها فى دنياها بعد أن خطقت المنون أخاه قد أصبح بين عشيّة وضحاها خلف أستار وأحجار ، وما تزال الأرض التى وُسِّدَ فيها جديدة ، فوته منذ أيام ، ونزوله فى هذه الحفرة المظلمة لم يمض عليه إلا فترة قصيرة . وهى تنظر إليه من حولها كما عودها فلا تراه ، فتتدببه ندبا حارا ، وما تزال تذهب وتجيء ، وما تزال حائرة ، والدموع فى عينيها ولسانها ينوح . ويموت أبوها فتبكيه ، وتتحول حياتها إلى مآتم متكررة ، لا تزال تبكى فيها وتنتحب .

وهذه اللوعة المتقدة فى فؤاد النساء نجدها تتقد أيضاً فى فؤاد بعض الشعراء على إخوانهم ، ولعل مُسْتَمَّ بن ثويرة الشاعر المخضرم أكثر الشعراء القلماء لوعة وحرقة على أخيه ، وكان قد قتل فى حروب الردّة ، فراثه رثاء حارا لا يصدر إلا عن قلب موجد وفؤاد ملتاع ، ومن قوله فيه :

لَقَدْ لَامَنِ عِنْدَ الْقُبُورِ عَلَى الْبُكَاءِ صَدِيقٍ لَتَذُرَافِ الدَّمُوعِ السَّوَاكِ
 يَقُولُ أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرِ رَأَيْتُهُ لَقَبْرِ ثَوَى بَيْنَ اللَّوَى فَالِدَ كَادِكِ^(٤)

(١) رآها الدهر : رأت منه ما يسوؤها .

(٢) الإصفار بالحنين : خفض الصوت به ، والإكبار : رفعه .

(٣) العلم : الجبل

(٤) لوى الرمل : منقطه ، والد كادك : جمع دكدك وهو الرمل المستوى .

قلت له إن الشَّجَى يَبْعَثُ الشَّجَى فَدَعْنِي فَهَذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكٍ

وقد ظل يبكيه حتى ابيضت عيناه من الحزن ، وحتى أسخط عمر بن الخطاب على ما كان من قتل خالد بن الوليد له ، وصار ندبه لأخيه مصير الأمثال ، فهو يُرَوَى ويتمثل به في كل مكان ، ومن بديع ما قاله فيه :

أَبَى الصَّبْرَ آيَاتُ أَرَاهَا وَإِنِّي أَرَى كُلَّ حَبْلٍ بَعْدَ حَبْلِكَ أَقْطَعَا^(١)
وَأَتَى مَتَى مَا أَدْعُ بِاسْمِكَ لَا تُجِبْ وَكُنْتَ حَرِيًّا أَنْ تُجِيبَ وَتَسْمَعَا
تَحِيَّتَهُ مَنَى وَإِنْ كَانَ نَائِيًّا وَأَمْسَى ثُرَابًا فَوْقَ الْأَرْضِ بَلَقَعَا^(٢)
فَإِنْ تَكُنِ الْأَيَّامُ فَرَقَنَ بَيْنَنَا فَقَدْ بَانَ عَمُودَا أَخِي حِينَ وَدَّعَا^(٣)
وَكُنَّا كَنَدَمَانِي جَذِيْمَةَ حِقْبَةٍ مِنْ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَصَدَّعَا^(٤)
فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا لَطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا
وَلَوْ أَنَّ مَا أَلْقَى أَصَابَ مُتَالَعَا أَوَّلُ الرُّكْنِ مِنْ سَلَمَى إِذْنِ لَتَضَعَضَعَا^(٥)
سَقَى اللَّهُ أَرْضًا حَلَّهَا قَبْرُ مَالِكٍ ذِهَابَ الْغَوَادِي الْمُدْجَنَاتِ فَأَمْرَعَا^(٦)

والآبيات من قصيدة طويلة حاول أن يتجلد في أولها ، ولكن لم يلبث أن غلبه الحزن على أخيه فتحسّر على فراقه ، وبكى لوداعه ، وإنه ليحييه من بعيد وهو يئن أنين الثكلى المقروحة الفؤاد ، مصورا عظم ما نزل به من المصيبة الفادحة التي لو نزلت بجبل لدكته دكا . ولم يلبث أن استسقى لقبره قطع

(١) أقطع : مقطوع .

(٢) البلقع : الأرض القفر .

(٣) بان : فارق .

(٤) جذيمة هو جذيمة الأبرش ، نادم مالكا وعقيل ابن فارج بن كعب ، ثم قتلهما ، يتصدعا : يتفرقا .

(٥) متالع وسلمي : جبلان .

(٦) الدهان : جمع ذهبية وهي القطعة الغزيرة من المطر ، والغواصي : الشجب التي تنفذ بالنيث ، والمدجنات : الكثيفة الشديدة السواد ، وأمرع : أخضب .

السحاب الكثيفة حتى تخضر الأرض من حوله وتزهى به ويجدته ، ويصبح منها في روض بهيج .

وما يزال الزمن يتقدم بنا حتى نلتقي بالعصر العباسي عصر الرق الفكري والتعمق في الأحاسيس والمشاعر فنجد أبا تمام يرثي أخاله رثاء باكيا ، وكأن كل بيت فيه يقطر دما بل دما ، فالحزن يجري في قلبه وفؤاده ، بل في أعطاف أبياته نفسها ، فهي تنبض به وتخفق ، يقول :

إني أظنُّ البلى لو كان يفهمه صدَّ البلى عن بقايا وجهه الحسنِ
يا يومه لم تدعْ حُسنا ولا أدبا إلا حكمت به للحدِّ والكفنِ
لله مقلته ا والموتُ يكسرُها كأن أجفانه سكرى من الوسنِ
يردُّ أنفاسه كرهاً وتغظفُها يدُ المنية عطفَ الريح للغصنِ
يا هؤل ما أبصرت عيني وما سمعتُ أذنًى فلا أبصرت عيني ولا أذنًى
لم يبق من بدني جزءٌ علمتُ به إلا وقد حلّه جزءٌ من الحزنِ
كان اللّحاقُ به أهنا وأحسنَ بي من أن أعيش سقيمَ الروح والبدنِ

وهو في هذه الأبيات يصور تصويرا دقيقا صراع أخيه مع الموت ساعة الاحتضار ، وقد عرف كيف ينقل إلينا اللحظة بكل ما ونزه فيها من لبر الألم والجزع ، حتى ليتحول إلى هيكل للأوصاب والأشجان ، فكل جزء فيه يملؤه وصب وشجن ووجع ، لما رأى وسمع . لقد رأى أخاه والموت يكسر أجفانه ويخفق أنفاسه ، وإن كل نفس ليخترق حجاب سمعه بما فيه من حشجة ، فتكاد تنقطع نياط قلبه هما وحزنا ، وإنه ليود أن يلحق بأخيه حتى لا تعاوده أشباح هذه الذكري التي تضغط على قلبه وتعتصر فؤاده اعتصارا .

وإذا كانت أصوات الناحة قد ارتفعت على مر العصور مع موت الإخوة فإن هذه الأصوات قد بُجَّت مع موت الأبناء وأفلاذ الأكباد ، فإن حرارة الأمهات والآباء بهم تأكل قلوبهم وأفتلتهم إذ يرون كأن أجزاء وأعضاء من أجسادهم بُسرت بئرا ، وصدقت هذه الأعرابية التي تقول في رثاء ولدها :

يَا قُرْحةَ القلب والأحشاء والكبدِ مَالَيْتُ أَمَّكَ لَمْ نَحْبَلْ وَلَمْ تَلِدْ
أَيَقْنَتُ بَعْدَكَ أَتَى غَيْرُ بَاقِيَةٍ وَكَيْفَ يَبْقَى ذِرَاعٌ زَالٍ عَنْ عَضُدِ

فهى تشعر شعورا عميقا بأن جزءا منها واره التراب ، وهى فى طريقها إليه
لتضمه إلى جسدها وصلوها . فحياتها قد انتهت بموته ، وهى تنجاز واديا مظلما
من الغصص والآلام ، وتقطع بين التشيع والنحيب ، حتى تصل إليه بعد التعب
وطول العناء والشقاء . وما أصدق بكاء الأب الذى هوى ابنه تحت عينه من قمة
جبل ، ففارقته روحه للتو والساعة ، فراح يقول :

هَوَى ابْنِي مِنْ عَلَا شَرْقٍ يَهْوِلُ عُقَابُهُ صَعْدُهُ^(١)
وَلَا أُمُّ فَتَبْكِيهِ وَلَا أُخْتُ فَتَفْتَقِدُهُ
هَوَى عَنْ صَخْرَةٍ صَلْدٍ فُقِرَتْ تَحْتَهَا كَبِدُهُ^(٢)
الْأُمُّ عَلَى تَبْكِيهِ وَالْمُسُ فُلَا أَجْدُهُ

فابنه قد سقط سقطة لا إقالة له منها، سقط فى هاوية الموت بأسفل الجبل ،
ورآه أبوه وهو يسقط فى قرار الأبدية العميق ، ولم يستطع أن يمد له عوناً ، ومع
ذلك لا يزال يظن أنه من حوله ، فيضع يده ويتحسس كالأعمى فلا يجده ،
ولمّا يجد الفقد والوجد والبكاء .

ولعل أباً لم يبلغ من التعبير عن لوعته بفقد أبنائه ما بلغه أبو ذؤيب الهذلى فى
بكائه لابنيه السبعة الذين اختطفهم الموت من يده وحجره ، فقال يتوجع لفراقهم
ويتحسر لموتهم :

أَمِنْ الْمَنُونِ^(٣) وَرَبِّهِ تَتَوَجَّعُ وَالْدَّهْرُ لَيْسَ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ يَجْزَعُ
قَالَتْ أُمِيَّةُ مَا لَجِسْمِكَ شَاحِبًا مِنْذُ ابْتَدَلْتَ وَمِثْلُ مَالِكٍ يَنْفَعُ

(١) الشرف : قمة الجبل ، والصعد : الصمود .

(٢) الصلد من الصخور : الذى لا ينبت ، وفقرت : تفتقت .

(٣) المنون هنا : الدهر .

أُم ما لجسمك لا يلائم مَضْجَعًا إلا أَقْضُ^(١) عليك ذاك المَضْجَعُ
فَأَجَبْتَهَا أَمَّا لجسدى إِنَّهُ أَوْدَى بَنِيَّ من البلاد فودَّعوا^(٢)
أَوْدَى بَنِيَّ وَأَعْقَبُونى حَسْرَةً بعد الرقاد وعبرةً ما تُقْلِعُ^(٣)
سَبَقُوا هَوًى وَأَعْتَقُوا لهوَاهُمْ فَتَخَرُّمُوا، ولكل جَنْبٍ مَضْرَعُ^(٤)
قَبَقَيْتُ بَعْدَهُمْ بَعِيشٍ نَاصِبٍ وإِخَالِ أَنى لاحِقٌ مُسْتَنْبِعُ
وَلَقَدْ حَرَصْتُ بِأَنْ أَدَافِعَ عَنْهُمْ وإذا النية أَقْبَلْتُ لا تُدْفَعُ
وإذا النِّيَّةُ أَثْبَتَتْ أَخْفَارَهَا أَلَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لا تَنْفَعُ^(٥)
فَالْعَيْنُ بَعْدَهُمْ كَأَنَّ حِدَاقَهَا سَمِلَتْ بِشَوْكٍ فَهِيَ غُورٌ تَدْمَعُ^(٦)
حَتَّى كَأَنِّى لِلْحَوَادِثِ مَرَوَةٌ بَصًّا الْمَشْرِقِ كُلَّ يَوْمٍ تُفْرَعُ^(٧)
وَلَوْ بَنِيَّ لَجَعَ الزَّمَانُ وَرَيْبُهُ إِنى بِأَهْلِ مودَّتى لَمُفْجَعُ

وهى صبيحة حسرة وألم صاحبها أب من أحشائه وسويداء فؤاده ، وقد وصف فيها شحوبه وسهاده ودموعه التى لا ترقأ ولا تجف ، وذكر أن عيشه انقلب مرا من بعدهم ، فهو يتجرع الحياة كأنها غُصَصٌ من العذاب . لقد رآهم والموت يتلقفهم واحدا بعد واحد ، فلم يستطع دفعا له ولا ردا . وتلك البراعم التى غرس شجرتها وسقاها من روحه وقلبه تنفتت وتذبل أزهارها فى الكيام ، ولا حول له ولا قوة . إن عليه أن يتلقى النهاية المفجعة لكل غلظة من فلذات كبده . وكل ابن كان ملء روحه وقلبه ، وتقفر الدنيا من حوله ، ولا يبقى له إلا الألم والبكاء الممض وإلا هذا الوادى وادى الموت الذى يحوس خلاله .

(١) أَقْضُ عليه المضجع : وجده غشنا لا يريحه .

(٢) أَمَّا هنا مركبة من أن وما الموصولة ، أودى : هلك .

(٣) تَقْلِعُ : تكف .

(٤) هَوًى : هواى ، أَعْتَقُوا : أسرعوا ، تَخَرَّمُوا : ماتوا واحدا بعد واحد .

(٥) التَمِيمَةُ : العوذة .

(٦) الْحِدَاقُ : جمع حدقة ، سملت : ففتت .

(٧) المروة : حجر أبيض تقدح منه النار .

وما يزال الشعراء يضحجون بالبكاء والندب على أبنائهم حتى نصل إلى العصر العباسي ، فنجد إبراهيم بن الخليفة المهدي يموت له ابن بعيدا عنه في البصرة ، وكان هو ببغداد ، فقال يرثيه :

دَعَتْهُ نَوَى لَا تُزَيِّجِي أَوْبَةً لَهَا	فقلبك مسلوبٌ وأنت كئيبٌ
تَبَدَّلَ دَارًا غَيْرَ دَارِي وَجِيرَةٍ	سواي وأحداثُ الزمان تنوبُ
يُؤُوبُ إِلَى أوطانه كُلُّ غَائِبٍ	وأحدٌ في الغِيَابِ ليس يثوبُ
كَأَن لَمْ يَكُنْ كَالْفُضْنِ فِي مِيعَةِ الضُّحَى	سقاء النَّدَى فاهتزَّ وهو رطيبٌ
كَأَن لَمْ يَكُنْ كَالدَّرِّ يَلْمَعُ نُورُهُ	بأصدافِهِ لَمَّا تَشَفَّهْ ثَقُوبُ
وَرِيحَانٌ صَدْرِي كَانَ حِينَ أَشْمُهُ	وَمُؤْنِسٌ قَصْرِي كَانَ حِينَ أَغْيَبُ
قَلِيلًا مِنَ الْأَيَّامِ لَمْ يَزَوْ نَاطِرِي	بها منه حتى أعلقتهُ شعوب ^(١)
كَظَل سَحَابٍ لَمْ يُقِمْ غَيْرَ سَاعَةٍ	إلى أن أطاحتَهُ فطاح جَنُوب ^(٢)
أَوِ الشَّمْسِ لَمَّا مِنْ غَمَامٍ تَحَسَّرَتْ	مساءً وقد وَلَّتْ وِحَانُ غُرُوبُ
سَأَبْكِيكَ مَا أَبَقْتَ دُمُوعِي وَالْبُكَاءُ	بِعَيْنِي مَاءٌ يَا بُنَى يُجِيبُ
وَمَا غَارَ نَجْمٌ أَوْ تَغَطَّتْ حَمَامَةٌ	أَوْ اخْضَرَّ فِي فَرْعِ الْأَرَاكِ قَضِيبُ
حَيَاتِي مَا دَامَتْ حَيَاتِي فَإِنْ أُمْتُ	ثَوَيْتُ وَفِي قَلْبِي عَلَيْكَ نَدُوبُ ^(٣)
وَأُضْمِرُ إِنْ أَنْفَدْتُ دُمْعَى لَوْعَةٍ	عليك لها تحت الضلوع وَجِيبُ
وإِنَّ صَبَاحًا ثَلَعَتْهُ فِي مَسَائِدِ	صباحٌ إلى قَلْبِي الغَدَاةُ حَيِيبُ

ولا ريب في أن هذه صرخة من الأعماق فإن أحمد توفي دون أن يراه أبوه ، توفي بعيدا عنه غريبا عن الأهل والأقرباء ، وإن ذلك ليحز في فؤاد أبيه ، بل إنه ليلتاع له التياحا ، فكل غريب يؤوب إلا أحمد ، وتلك القوافل كلها

(١) شعوب : المنية .

(٢) الجنوب : الريح الجنوبية .

(٣) ندوب : جروح .

خلاء منه . إنه رحل في قافلة أخرى ، قافلة لا تسير في النهار ، وإنما تسري في ليل الأبدية . وينعاه أبوه ، ينعي شبابه ونضرتة وريحانه وأنسه . وإنه ليدكر أيامه الماضية فتتراعى له قصيرة كظل سحابة وغروب شمس ، فيبكي ويئن مع طلوع كل صباح ودخول كل مساء ، ومع حنين الطير وشدة الحمام . ووراء الأئين والبكاء حرقه الوجد وألم الفقد ، وإنه لينتظر الموت ، حتى يُغرق في لُجّته عذابه ، بل حتى يلقي ابنه الذي فصمه منه وفصله عنه .

ونمضى فلتلقى بأبي تمام ، وقد قرع الموت فؤاده ، إذ استخلص لنفسه منه ابنه ، وكان تحت بصره وهو يجالّد الموت بكل ما يملك ، ولكن الموت غلاب ، فلم يلبث أن غلبه على أمره ، فاستسلم لقضاء ربه ، ورأى كل ذلك أبو تمام ، فقال :

آخرُ عهدى به صريعا	للموت بالداء مستكينا
إذا شكا غُصّةً وكرّبا	لاحظ ^(١) أو راجع الأئينا
يُدِيرُ في رَجْعِهِ ^(٢) لسانا	يمنعه الموتُ أن يُبينَا
يَشْخَصُ طورا بناظرِيه	وتارة يُطْبِقُ الجفونا
ثم قضى نَحْبَهُ فأمسى	في جَدَثٍ ^(٣) للثرى دَفينَا
بعيد دارٍ قريب جارٍ	قد فازى الإلف والحدِينَا ^(٤)

ولا يقرأ أحدهذه الأبيات حتى ينبض قلبه ويخفق ، لأن أبا تمام عرف كيف يصور لحظة الاحتضار وما يرافقها من ضربات الموت ، إنها تسدّ إلى ابنه ، وهو لا يستطيع لها ردا ، ويشكو ويفتح عينيه ، وما تلبث يد الموت السوداء أن تغمضهما ، بل إنها لتتقدم له بكتوس مليئة بالغصص والكُرب ، ولا يستطيع إلا أن يشرب منها ، يشرب السم الزعاف . إن روحه عند حلقه ، وإن ومضات الحياة

(١) لاحظ : نظر إلى أهله مستغيثا .

(٢) الرجوع : رد الكلام .

(٣) الجدث : القبر .

(٤) الحدين : الصديق .

تبرق في عينه، ثم لاتبث أن تختفي في ظلام الموت وبين سحبه التي اكفهر بها الجو،
وإنه لجوخائق . واختنق الغلام وفارق دنياه، وخلف أباه وراءه للأوجاع والآلام،
على نحو ما خلف لابن الرومي ابنه الأوسط محمد، إذ مات منزوفاً، فقال يبيكيه:

تَوَخَّيْ حِمَامَ الْمَوْتِ أَوْسَطَ صِنْبِي
لَقَدْ قَلَّ بَيْنَ الْمَهْدِ وَاللَّحْدِ كَبُتُهُ
أَلْحَ عَلَيْهِ النَّزْفُ حَتَّى أَحَالَهُ
وِظْلٌ عَلَى الْأَيْدِي تَسَاقُطُ نَفْسُهُ
فِيَالِكَ مِنْ نَفْسٍ تَسَاقُطُ أَنْفُسًا
أُرِيحَانَةُ الْعَيْنِينَ وَالْأَنْفِ وَالْحَشَا
كَأَنِّي مَا اسْتَمْتَعْتُ مِنْكَ بِضَمَّةٍ
الْأَلَمُ لِمَا أَبْدَى عَلَيْكَ مِنَ الْأَسَى
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مِنْ تَحِيَّةٍ
فَلَهُ ! كَيْفَ اخْتَارَ وَاسِطَةَ الْعَقْدِ^(١)
فَلَمْ يَنْسَ عَهْدَ الْمَهْدِ إِذْ ضُمَّ فِي اللَّحْدِ
إِلَى صَفْرَةِ الْجَادِي عَنْ حُمْرَةِ الْوَرْدِ^(٢)
وَيَذْوَى كَمَا يَذْوَى الْقَضِيبُ مِنَ الرَّندِ^(٣)
تَسَاقُطَ دُرٌّ مِنْ نِظَامٍ بِلا عَقْدٍ^(٤)
أَلَا لَيْتَ شَعْرَى هَلْ تَغَيَّرَتْ عَنْ عَهْدِي
وَلَا شَمَّةٌ فِي مَلْبَعٍ لَكَ أَوْ مَهْدٍ
وَإِنِّي لِأَخْفَى مِنْكَ أَضْعَافَ مَا أَبْدَى
وَمِنْ كُلِّ غَيْثٍ صَادِقِ الْبَرْقِ وَالرَّعْدِ

وابن الرومي مثل أبي تمام محترق القلب على ابنه الذي رآه يجود بنفسه تحت
بصره ، وقد عركه النزف وأحاله في صفرة الزعفران ، وإنه ليرتعش في يد الموت
الأثيم الذي سلّ عليه سيفه ، وإن دماؤه لتسيل والمنون لا ترحم . فيا لابن الرومي !
إنه يشعر كأن نفسه تتساقط من بين جنبه وهذه الزهرة الحاملة التي كان يجد فيها
فرحة قلبه وحشاه قد أخذت تذوي قبل الأوان ، وكأنه لم يستمتع منها بشمة ولا
ضمة فيا لبؤس الحياة ! إنها تبدو في صورة بشعة من القبح والألم . وابن الرومي
يفزع ويرتاع ، ولا ينفعه فزعه ولا ارتياعه ، فيعود إلى تحية ابنه ويستسقى له على
عادة العرب الغيث والسحاب .

(١) واسطة العقد : الجوهرة التي تتوسط لآله .

(٢) الجادي : الزعفران .

(٣) الرند : شجر طيب الرائحة .

(٤) نظام بلا عقد : سلك غير معقود .

وما أكثر من بكوا أبناءهم ! وبكاءُ الشهامي لابنه ذائع مشهور ، وهو يستله
بالحديث عن فناء الناس وكل ما على الأرض ، وما يلبث أن يندبه ندبا حارا ،
فيقول :

يا كوكبا ما كان أقصرَ عمره وكذلك عُمرُ كواكبِ الأسحار
وهلالَ أيامٍ مضى لم يستدِرْ بدرا ولم يُتمهلْ لوقتِ سِرار^(١)
عجل الخسوفُ عليه قبل أوانه فحماه قبل مَظَنَّةِ الإبدار

ومن أروع ما نظم في بكاء الأبناء مقطوعة لفقيه الأندلس أبي الوليد الباجي
ندب بها ابنين له ماتا مغترين ، وهي تجرى على هذا النمط :

رعى الله قبرين استكانا ببلدٍ هما أسكنها في السواد من القلبِ
يقرُّ بعيني أن أزور ثراها وألصقَ مكنونَ الترائب في التُّربِ^(٢)
وأبكي وأبكي ساكنها لعلني سأُجدُ من صخبٍ وأسعد من سُخبِ^(٣)
فما ساعدتْ وُزْقُ الحام أخا أسي ولا رَوَّحتْ ريحُ الصِّبا عن أخى كُربِ
ولا استعذبتْ عيناى بعدها كُرى ولا ظمئتْ نفسى إلى البارد العذبِ
أحينٌ ويئني اليأسُ نفسى عن الأسي كما اضطرُّ محمولٌ على المركب الصَّعبِ

والأبيات تفيض بالشعور الصادق الذي يعبر عن نفس مجروحه قد هدَّها
الهم وضعفها الحزن ، وإن صاحبها لجزع أشد الجزع ملتحا أعظم التليح .
وربما كان أهما شاعر ولع برثاء ابنه وبكائه أبو الحسن علي بن عبد الغني
الكفيف شاعر القيروان الذي هاجر إلى الأندلس حين خربها العرب حوالى
منتصف القرن الخامس للهجرة ، فقد توفى له ولد في التاسعة من عمره ، فصنع
فيه مراثى على حروف المعجم ألف منها ديوانا سماه « اقتراح القريح واجترح
الجريح » وفيه يقول :

(١) يستدر : من استدارة البدر في وسط الشهر . وقت السرار : وقت اختفاء القمر جملة .

(٢) الترائب : عظام الصدر

(٣) أسعد : من أسعده أى أعانته في البكاء والنواح

أنا فَرَدُّ بلا خليل ولا ابن ولا أخ
أنا كالأورق اشتكى بُعْدَ وَكْرٍ وَأَفْرُخِ
قُرَّةُ العين دونه برزخُ أيِّ بَرْزَخِ

ومع طول الديوان تقل فيه الأبيات الملتاعة، إذ شُغِلَ صاحبه بالصور البيانية والحيل البلاغية مما كان يعد آية البراعة في عصره .
ولعل فيما قدمنا ما يدل دلالة واضحة على أن نذب الأبناء والإخوة يستوفى أكثر الصفحات المحزونة من نذب الأهل والأقارب ، فإننا إذا تركناهم إلى غيرهم من الأصول والفروع لم نجد هذه الحرقه التي تتصور لها الأحشاء والقلوب ، ومع ذلك من حين إلى حين نجد بكاءً لأب أو أم أو جدة أو أخت أو بنت ، وربما كانت مرثية شوقي لأبيه خير صورة لنذب الآباء في العربية ، وإن كان قد أدخل عليها تفكيراً في الحياة والممات ، ولكن تظل بعض الأبيات لها روعة النذب واليكاء كقوله :

أنا من مات ومن مات أنا لقيَ الموتَ كلانا مرتين
نحن كنا مهجّةً في بَدَنٍ ثم صرنا مهجّةً في بدنين
ثم عُدنا مهجّةً في بَدَنٍ ثم نُلقي جُثّةً في كفنين
ما أبى إلا أخٌ فارقتُهُ ودّه الصدقُ وود الناس مَين
طلما قمنا إلى مائدةٍ كانت اليكسرةُ فيها كسرتين
وشربنا من إناءٍ واحدٍ وغسلنا بعد ذا فيه اليدين

وقليل بين الشعراء من رثى أمه ، وربما كان من أجل ما قيل في الأمهات قول ابن سناء الملّك في أمه من موشحة :

حزنى على أمىَ حزنٌ شديدٌ تَبَلَّى الليالى وهو غُضٌّ جديدٌ
فقل لنار القلب هل من مزيدٍ وقل لصرف الدهر هل من تحيدٍ

ورثني المتنبي جدته ، ولكن رثاءه فيها يدور على الفخر بنفسه أكثر مما يدور على بكائها ، وقد تأثر به شوقي في رثاء جدته « تمراز » . ويندر أن نجد ندبا حارا لأخ على أخته ، وربما كان أبو فراس الحمداني خير من ندب أختا له ، ففي أخته يقول :

عقيلتي استلبت من يدي ولما أبعثها ولما أهب
وكنت أتيك إلى أن رمتك يدُ الدهر من حيث لا أحسب
فلا سلت مقلة لم تسح ولا بقيت لمة لم تشب

وهذه كلها مرث لا تبلغ من حرارة التفجع ما تبلغه مرثي الأبناء ، وإذا كان هناك قصور فهو من قبيل الرجال الذين تعودوا — تقليداً للجاهليين — أن لا يرثوا بناتهم وأمهاتهم وأن لا يبكوا عليهن . أما المرأة فكانت أكثر وفاء للرجل ، بكته أختا وأبا وإبنا ، وبكته زوجاً ، حدث الأصمعي أنه رأى بالبادية امرأة ألصقت خدها بقبر زوجها وهي تبكي وتقول :

خدي تقيك خشونة اللحد وقليلة لك سيدي خدي
يا ساكن القبر الذي بوفاته عميت على مسالك الرشد
اسمع أبك عيتي فلعلني أطفئ بذلك حرقة الوجد

وتزوج الأمين بفتاة ، وتوفى عنها قبل أن يبنى بها ، فندبته ندبا حارا ، ومن قولها فيه :

أبيك لا للنعيم والأنس بل للمعالي والرمح والفرس
أبكي على سيد فجعته به أرملني قبل ليلة العرس

فالمرأة لم تقصر في بكاء أهلها وأزواجها ، وقد بكى كثير من الرجال زوجاتهم ، وربما كانت الزوجة أهم النساء اللائي ذرف الرجال عليهن الدموع ، فنحن نجد في كتب الأدب قديما وحديثا قطعاً مبكية في هذا الجانب . ومن

طريف ما روى لبعض الأعراب :

فوالله ما أدرى إذا الليل جئني وذكرنيها أينما هو أوجع
أمنفصل عن ندي أمّ كريمه أم العاشق النابي به كل مضجع^(١)

وصور هنا هذا الأعرابي ما يبكيه الرجل في زوجته ، فهو يبكي معشوقته من جهة وأم أطفاله من جهة ثانية . ومن أروع ما رُئي به الزوجات وأشجاء قول محمد بن عبد الملك الزيات في زوجته :

ألا من رأى الطفل للمفارق أمه بعيد الكرى عيناه تبتدران^(٢)
رأى كل أمّ وابنها غير أمه بيتان تحت الليل ينتجيان
وبات وحيدا في الفراش تحته بلابل قلب دأثم الخلفان
فلا تلحني إن بكيت فأنما أداوى بهذا الدمع ما تريان
وإن مكانا في الثرى خطّ لحده لمن كان في قلبي بكل مكان
أحق مكان بالزيارة والهوى فهل أتينا إن عجت متظران

وفي هذه الأبيات لوعة حقيقية ، لوعة الزوج الوامق الذي يكاد يموت حسرة وأسى على زوجته ، وإنه ليولى وجهه شطر ابنها ، ويرى حزنه وولمه ، فتعظم الحسرة ويعظم الأسى والشجن في نفسه ، فيحن إليها ، يحن إلى جسدها وروحها ، وما يزال يختلف إلى قبرها بنفس الحرارة والعمق اللذين كان يختلف بهما إلى قصرها . وماذا يستطيع ، وماذا يجنى ؟ إنها ذهبت إلى الأبد ولم يعد له منها إلا الدموع الغزار وإلا الآلام والأشجان .

وعلى نحو ما رُئي العباسيون زوجاتهم رثوا جوارهم وبكوهن ، وارتفع صياحهم وراءهن ، وناحوا عليهن نواحا لا ينقطع ، ومن اشتهروا بذلك في العصر

(١) واضح أن حركة الروى في هذا البيت تخالف حركته في البيت السابق ويسمى العرب

ذلك إقواء .

(٢) تبتدران هنا : تسيلان بالدموع .

العباسي يعقوب بن الربيع ، وكان عشق جارية ، وظل سبع سنوات يبذل فيها
جاهه وماله حتى ملكها فأقامت معه بضعة أشهر ، ثم ماتت ، فشر كأنه كان
في حلم وأفاق منه على البؤس ، وله فيها نذب كثير ، منه قوله :

لله آنسة فجعتُ بها ما كان أبعدها من الدُّنسِ
أتتِ البشارة والنعيُّ معا ياقرب مأتمها من العُرسِ
كم من دموعٍ لا تجفُّ ومن نفسٍ عليك طويلة النفسِ
أبكيتُ ما ناحت مطوقةً تحت الظلام تنوح في الفلَسِ

وكأنما كان هناك سباق بين القدر وبين يعقوب أن لا ينعم بأمنيته ، فلم
يكده يظهر بها ، ولم تكده تغمر حياته بنور السعادة ، حتى فرت من أمام عينيه ،
ونخفت له للظلام والوحشة . ألا إن هذه سخرية القدر ، لقد ظل يطلبها سبع
سنين ، ولم يكده يحصل عليها ويلمسها ، يلمس فرحته وسعاده ، حتى أتاه النعيُّ
مع البشري ، وانقلب العرس البهيج إلى مأتم حزين .

وعلى نحو ما بكى العباسيون جوارهم وزوجاتهم بكاء فيه شجى وأسى
بكت الأقاليم العربية الأخرى ، ففي كل مكان نجد مرثى الجوارى والزوجات ،
فن ذلك رثاء المعلّى الطائي المصري جاريته « وصف » وفيها يقول :

ياموت ما بقيت لي أحدا لما زفقت إلى البلى ووصفا
أسكنتها في قمر مظلم بيتا يصانح تُربسه السَّقفا
بيتا إذا ما زاره أحدٌ عصفت به أيدي البلى عصفا
ياقبرُ أبقي على محاسنها فقد حويت النور والظرفا

وهي مرثية طويلة ، وتتمتاز بالعاطفة الصادقة والشعور العميق بالحزن .
وللمصريين من ورائه مرثى مبكية كثيرة في زوجاتهم ، وكذلك الأندلسيون ،
ولبعضهم في رثاء زوجته وكانت تسمى زينب :

أزینبُ إن ظعنْتِ فإن ظَهَرَ أَقْلُکِ^(١) سوف یرکبهُ المَقيمُ
ولما أن حَلَّتِ التُّرْبَ قلنا لقد ضَلَّتْ مَواقِعها النجومُ
ألا یازهرة ذَبَلَتْ سَریعا أَضْنَ المَزنُ أم رَكَدَ النَسیمُ

والصورة المرسومة فی البيت الأخير جميلة حقا ، وهی صورة أملاها حب
دفين لزوجته اختطفها المنون وهی لا تزال فی عمر الزهور . إنها زهرة ندية عطرة لم
تلبث أن ذوت قبل الأوان ، وبديع من الشاعر أن أكمل الصورة بقوله « أَضْنَ
لمزن أم ركد النسيم ؟ » فقد صبَّ فی هذا التساؤل الذى تتساءله مواكب الإنسانية
من قديم كلِّ ما أراد من إظهار الحيرة والدهشة لزاء المصيبة الفادحة .

ومن بكى زوجته فی العصر الحديث بكاء حارا محمود سامى البارودى ، إذ
ماتت شریكة حیاته وهو منى^٢ فی سرنديب فحُرِّمَ أولاده أباهم وأمهم جميعا .
واجتمع علیه بذلك أسى النبی والفقد وحرمان الأبناء ممن كانت أنسهم فی غيبته
وأمنهم وسعادتهم ، ولم یلبث أن بث حسرتة المتوقدة وحرقة المتأججة فی مراثية
طويلة یقول فیها :

یا دهرُ فیم فجعتنى بحلیلةٍ كانت خلاصةَ عُدتى وعَتادی
إن كنتَ لم تَرَخَ صَناىَ لبعدها أفلا رحمتَ من الأسى أولادی
أفرَدتَهنَّ فلم یَنَمَنَّ توجعاً قَرَحَى العیون رواجفَ الأکبادِ
أَلَقَینَ دُرَّ عقودهنَّ وصُغْنَ من دُرِّ الدموعِ قلائدَ الأبیادِ
یَبْکِینَ من ولَهَ فراقَ حَفِیَّةٍ كانتَ لهنَّ کثیرةَ الإسعادِ
فخدودهنَّ من الدموعِ نَدِیةٍ وقلوبهنَّ من الهمومِ صوادی

ومنذ سنوات نشر كل من عزیز أباطة وعبد الرحمن صدق دیوانا یرى فیهِ
زوجته فقد صهر الحزن قلبیها ، وسعر فؤادیها ، فسکبا الدموع ، وسرعان ما
تحولت الدموع إلى دیوان شعر . وسمى عزیز أباطه دیوانه « أنات حائرة » وهی أنات

نفس سعدت بالحياة الزوجية وفراديسها، ثم لم تلبث أن رُدَّت إلى حجم الفراق وهو فراق الأبد. ومن طريف أشعاره فيها قصيدة بعنوان «يوم ميلادى» يقول فى مطلعها:

أقول والقلبُ فى أضلاعه شَرِقٌ بالدمع لا عُدَّتْ لى يا يوم ميلادى
نزلتْ بى ودخيلُ الحُزنِ يَعْصِفُ بى وفادحُ البَثِّ ما ينفكُ مُعْتادى
وكنْتَ تحملُ لى والشملُ مجتمِعٌ أنسا يفيض على زوجى وأولادى
فانظر تَر الدار قد هِيضَتْ جوانِبُها وانظرْ تَجِدْ أهلها أشباحَ أجسادِ
فقدتها خَلَّةً للنفس كافيَّةً تكاد تُفْنى غناء الماء والزادِ
تحنو على وترعانى وتبسط لى فى غمرة الرأى رأى الناصح الهادى
وسمى عبد الرحمن صديق ديوانه «من وحى المرأة» ولم تكن شريكة حياته
فحسب، بل كانت أيضا شريكة عقله ودروسه. فاعتصر الحزن قلبه عليها، وأوقد
فيه نيرانا لا تهدأ من الحسرة والفجعية، وصوّر ذلك لافى قصيدة أو قصيدتين،
بل فى ديوان كله ألم وعذاب. ومن قوله فيها وقد تحمّل إلى قبرها باقة من الزهر:

أيا زهرقى فى التراب بين المقابر إليك حلتُ الزهر، شأهتُ أزاهرى^(١)
حملتُ إليك الزهر ترويه أدمعى وتذويه أنفاسى وحرّ زوافرى
قدمتُ عليك اليوم أسوأ مَقْدَمٍ سوادٌ بأثوابى سوادٌ بخاطرى
وخاتمُ عُرْسى لا يُزَيِّنُ إصْبَعى ولحّة وجهى غيرها فى التزاويرِ
على قبرك المرموق أبكى وأرتى وأجار بالشكوى تشق مرائرى

ويطول بنا الحديث إذا أخذنا نعرض كل الطرائف التى بكى بها الشعراء
والشواعر أهليهم وأقاربهم ومن أصفوهم حبهم. وإنما هذه نماذج لما صور به
شعرنا الآلام والأوصاب التى حلت بأصحابه حين طرق الموت أبوابهم، واختلس
تحت أعينهم أفرادا من أسرهم وأقربائهم ورفاقهم.

ندب الشعراء أنفسهم

إذا كان الشعراء قد ندبوا أهلهم وذوهم فأولى لهم أن يندبوا أنفسهم حين
تحين ساعة الموت ، ولا يجدون لهم ملجأ ولا عاصما ، وكثيرٌ ندبوا أنفسهم
وبكوها منذ العصر الجاهلي ، ويقال إن أول من بكى على نفسه وذكر الموت على
لسانه يزيد بن خذآق ، إذ قال :

هل للفتى من بنات الدهر من واقى أم هل له من حمام الموت من راقى
قد رجّلوني وما بالشعر من شعثٍ وألبسوني ثيابا غير أخلاق^(١)
وأرسلوا فتية من خيرهم حسبا ليُسندوا في ضريح القبر أطباق^(٢)

وطبيعى أن يندب الشعراء أنفسهم وهم يفارقون دنياهم من ورأهم إلى حفرة
مظلمة . إنها ساعات ثم يخرج المشيعون من حولهم وورأهم ، يحملون نعوشهم
إلى قبورهم ، ويدفنونهم في لحودهم ويوارونهم التراب ويعودون ، ليتم كل منهم
دورته في حياته .

وكانت تعظم المصيبة على الشاعر حين يجد نفسه غريبا عن وطنه ودياره ،
وينزل به الموت ولا يجد مفرا من لقائه ، وينظر حوله ، فلا يجد أحدا من أهله ،
فليس معه من شيعه ولا من سيحفر له لحده ، ولا من سيكيه ويندبه . ومن
خير من صور الألم لذلك مالك بن الرّيب الذى غزا في خراسان ، فلما حضرته
منيته ناح على نفسه قائلا :

ألا ليت شعرى هل أيتنّ ليلةً بجنب الغضا أزجى القلاص النّواجيا^(٣)

(١) أخلاق : بالية .

(٢) أطباق : عظامى .

(٣) الغضا : شجر بتجد وأرض بها ، والقلاص : النوق ، والنواجى : السريعة .

فليت الغصا لم يقطع الركبُ عرضهُ
لقد كان في أهل الغضا لودنا الغضا
فيا صاحبي رَحلى دنا الموتُ فاخفرا
وخطاً بأطراف الأسنة مَضجى
خُذَانِي فَجُرَّانِي بِرُدى إِلَيْكَا
تَفَقَّدْتُ مِنْ يَبْكِي عَلَى فُلْمِ أَجْدِ
وبالرَّمْلِ مَنْ نَسُوهُ لَوْ شَهِدْتَنِي
عَجُوزِي وَأَخْتَايَ اللَّتَانِ أُصِيبَتَا
وما كان عهد الرمل منى وأهله
يقولون لا تَبْعُدْ وَهَمَّ يَدْفِنُونِي
وليت الغصا ماشى الركابَ لِيَالِيَا
مَزَارُ وَلَكِنْ الغصا ليس دَانِيَا
بِرَايَةٍ إِنْ مَقِيمٌ لِيَالِيَا
وَرُدًّا عَلَى عَيْنِي فَضْلَ رَدَائِيَا
وقد كنت قبل اليوم صَعْبًا قِيَادِيَا
سَوَى السِّيفِ وَالرَّمْحِ الرَّدِينِيَّ بَاكِ يَا
بَكَيْنٌ وَفَذَيْنَ الطَّيِّبِ الْمَدَاوِيَا
بِمَوْتِي وَبَنْتُ لِي تَهِيَجَ الْبَوَاكِ يَا
ذَمِيَا وَلَا بِالرَّمْلِ وَدَّعْتُ قَالِيَا^(١)
وَأَيْنَ مَكَانُ الْبَعْدِ إِلَّا مَكَانِيَا

والمرثية طويلة ، وكلها شكوى وبكاء وأنين ، لا من أجل الموت فحسب ، بل للموت البعيد فهو يموت غريباً عن الرمل وأهله ، لم تُغمض عينيه أمه ولا أخته ولا بنته ولا زوجه ، وإنه ليذكر الغضا ذكرى مؤلة ، إذ كان مكتمل الصحة والشباب يدفع النوق أمامه ، ولا وحدة ولا غربة . إنه يتمنى لو أنه لم يفارق الغضا ولا أهله ، إذن ما غالت خراسان هامته ، ولكنها الفتوح الإسلامية ، وهو يخرج مجاهداً في سبيل الله مع المجاهدين ، وقد ترك وراءه أسرته قرير العين ، غير أن الفراق صعب ، ولم يكن يعلم حين ودعهم أنه الوداع الأخير . وتطيف به الرهبة من الموت ، كما يطيف به الحنين إلى الأهل ، فيبكي ويندب متأثراً تأثراً عميقاً ، إذا أشرفت حياته على النهاية ، وعمما قليل توصلد أحجار القبر دونه . ألا فلينشج ولينح ، إن القدر سيصرعه لا محالة .

ونغضى إلى العصر العباسي فنجد الشعراء يكثر من نوح أنفسهم ، وخاصة أنهم يذكرون ذنوبهم فيخافون ربهم ، ويشفقون من لقاءه ، فينطلقون وجيلين معلنين التوبة والاستغفار مما قدمت أيديهم ، ولأبي نوحاس :

(١) القال : المبعض الكاره .

يَا رَبِّ إِن عَظُمَتْ ذُنُوبِي كَثْرَةً فَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنْ عَفْوِكَ أَعْظَمُ
إِنْ كَانَ لَا يَرْجُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ فَبِمَنْ يُلَوِّذُ وَيَسْتَجِيرُ الْمَجْرِمُ
مَالِي إِلَيْكَ وَسِيلَةً إِلَّا الرَّجَاءُ وَجَمِيلُ عَفْوِكَ ثُمَّ إِنِّي مُسْلِمٌ

لقد أظلمت الدنيا وادلمت في عين أبي نواس حين نزل به ريب المنون ،
ففرع إلى ربه يعلق به أمله ، ويرجوه منه أن يُسَدِّلَ ثوب الغفران على ذنوبه
وسيناته التي اقترفتها ، ويشمله بعفوه وإحسانه . ويكثر الشعراء العباسيون الذين
صاحوا هذه الصيحات حين طرقت المنية دورهم ، ولأبي العتاهية هذا الدعاء :

إِلَهِي لَا تَعَذِّبْنِي فَإِنِّي مُقِرٌّ بِالَّذِي قَدْ كَانَ مِنِّي
فَمَالِي حِيلَةٌ إِلَّا رَجَائِي لِعَفْوِكَ إِن عَفَوْتَ وَحُسْنُ ظَنِّي
وَكَمْ مِنْ زَلَّةٍ لِي فِي الْخَطَايَا وَأَنْتَ عَلَيَّ ذَوْ فَضْلٍ وَمَنْ
إِذَا فَكَّرْتُ فِي نَدَمِي عَلَيْهَا عَضَضْتُ أَنَامِلِي وَقَرَعْتُ سِنِّي
يُظَنُّ النَّاسُ بِي خَيْرًا وَإِنِّي لَشَرُّ الْخَلْقِ إِنْ لَمْ تَعْفُ عَنِّي

وشاع بين الشعراء أن يكتبوا على شواهد قبورهم أبياتاً ، فيها أحيانا الدعاء ،
وفيها أحيانا أخرى ذكر الموت والفناء وأن أحدا لا يقيم في الدار الأولى ، بل الكل
راحل ، ويقال إن أبا العتاهية أوصى بأن تُكْتَبَ على قبره هذه الأبيات الأربعة :

أُذُنٌ حَيَّةٌ تَسْمَعُنِي اسْمَعِي ثُمَّ عَيِّ وَعَيِّ
أَنَا رَهْنٌ بِمَضْجَعِي فَاحْذَرِي مِثْلَ مَضْجَعِي
عَشْتُ تَسْعِينَ حَبَّةً ثُمَّ وَافَيْتُ مَضْجَعِي
لَيْسَ شَيْءٌ سِوَى التَّقَى فَخُذِي مِنْهُ أَوْدَعِي

وكانت هذه الكتابة على شواهد القبور منتشرة في العالم الإسلامي كله ،
ويروى أن ابن شهيد شاعر الأندلس المشهور أوصى أن يكتب على قبره في لوح

رخام هذا النظم :

يا صاحبي قُمْ فقد أطلنا أنحن طول المَدَى هجود^(١) ؟
 فقال لي : لن نقوم منها مادام من فوقنا الصَّعيد^(٢)
 تذكرُ كم ليلةٍ لهونا في ظلِّها والزمانُ عيدُ
 كلُّ كائنٍ لم يكن، تقضى وشؤمُهُ حاضرٌ عتيدُ^(٣)
 ياربُّ عفواً فانت مولى قصر في أمرك العبيدُ

وهو يأسى على التحول إلى هذه الدار التي لا يقوم منها أهلها، فقد خُتِمت
 بحجارة لا تُفْتَصَّ حتى يوم البعث والنشور . ويذكر نعيمه في دنياه ، ويراه
 كسحابة جادت ، وسرعان ما رحلت . ويفزع إلى ربه يطلب منه العفو والغفران.
 وأوصى ابن زُهْر الطبيب الأندلسي المعروف أن تكتب هذه الأبيات على قبره :

تأملْ بِحَقِّكَ يا واقِفاً ولا حِظَّ مكاناً وقعنا إليه
 ترابُ الضريحِ على وَجْحتي كَأَنِّي لم أَمْشِ يوماً عليه
 أداوى الأنام حذار المنون وها أنا قد صرتُ رَهْناً لديه

ويظهر أن الأندلسيين عُنُوا بهذا الجانب ، فكثير منهم نظموا أشعارا وكتبوها
 على قبورهم ، وأيضا كثير منهم نَعُوا أنفسهم حين توقعوا الموت ، وهتف بهم
 هاتفه ، وللسان الدين بن الخطيب يبكى نفسه :

بَعْدنا وإن جاورتنا البيوتُ وجئنا بوعظٍ ونحن صموتُ
 وأنفاسنا سكنتُ دفعةً كَجَهْرِ الصلاة تلاه القنوتُ

(١) هجود : نيام .

(٢) الصَّعيد : التراب .

(٣) عتيد : مهياً .

وكنا عظاما فصرنا عظاما وكنا نقوت فما نحن قوت^(١)

وفي كل مكان من العالم العربي نجد هذا الندب والنواح ، فالأماسة واحدة ، وكل يزيد فيها سطرًا أسود حزينا .

ولعل شاعراً عربياً لم يرث نفسه ويكيها ، كما رثى في عصرنا نفسه وبكاها أبو القاسم الشابي الذي عصف به مرض القلب وهو في ريعان شبابه ، فعاش يكي نفسه ويندبها ندبا حارا لا في مرثية أو مرثيتين ، وإنما في ديوان حافل بألوان الشجى والأسى ، وصف فيه كيف أوصد المرض الأبواب والنوافذ عليه ، فلم يعد يرى إلا هاويته وحفرته . بل إن هذا المصير الذي لا بد واقد عليه ومته إليه أصبح يطلبه ، إذ يرى فيه منجاته من أوصابه وآلامه ، وهو يسمى هذا المصير « الصباح الجديد » وفيه يقول :

استكيت يا جراح واسكني يا شجون
مات عهد النواح وزمان الجنون
وأطل الصباح من وراء القرون

فساعة الخلاص قد دنت ، وأن له أن يدفن آلامه ، ويغرق أحزانه في خضم اللانهاية فقد دعاه الصباح ، ولم يعد الظلام يستطيع أن يلف جسده في ظلال الألم . إنه راحل وهو سعيد برحيله :

الوداع الوداع يا جبال المهموم
يا ضباب الأسى يا فيجاج المجعوم
قد جرى زورقي في الخضم العظيم
ونشرت القلاع فالوداع الوداع

وعلى هذه الشاكلة ما زال الشعراء قديما وحديثا يكون أنفسهم ويدعون ربهم في ساعات احتضارهم ، وحين يرون الستار يوشك أن يسدك على قصة حياتهم .

(١) عظام الأولى : جمع عظيم ، والثانية : جمع عظم .

ندب الرسول صلى الله عليه وسلم وآل البيت الكريم

حينما أفل كوكب الرسالة الإسلامية الذى أضاء ما بين المشرق والمغرب هلع الصحابة رضوان الله عليهم ، وفزعوا لهذا النبأ المفجع ، وكاد عمر بن الخطاب أن لا يصدق ، لولا أن ردّه أبو بكر إلى صوابه . وخرج الصحابة يصلّون عليه ويشيعونه إلى مثواه العطر بقلوب واجفة وعيون باكية ، ويقال إن ابنته فاطمة كانت تندبه وتقول :

اغْبَرَ آفاقُ السماء وكَوَّرَتْ شمسُ النهار وأظلم العصران^(١)
 فالأرضُ من بعد النبي كئيبةٌ أسفا عليه كثيرةُ الرجفان
 فليتبكّوا شرقُ البلاد وغربها وليبكه مَضَرٌ وكلُّ يمانٍ
 وليبكه الطّودُ المعظّمُ جوّه^(٢) والبيتُ ذو الأستار والأركانِ
 يا خاتمَ الرسل المباركِ صِنُوهُ^(٣) صلّى عليك منزل القرآن

واستحالت المدينة المنورة إلى بركان يقذف بحمم الندب والبكاء ، واشتعلت نيران الحزن فى كل صدر وفى كل قلب ، لولا أن أخذ الصحابة يتلون فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى « إنك ميت وإنهم ميتون » « أفئتين متّ فهم الخالدون ، كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت » . فبدأت السكينة تنزل على نفوسهم ، وثابوا إلى رشدهم ليلغوا رسالته المضيئة أطراف الأرض . وكان ممن ندبه فأحسن الندب حسّان ، وفيه يقول :

(١) كورت : سقطت ، والعصران : الغداة والعشى إلى احمرار الشمس .

(٢) الطود : الجبل ، وجوه : منخفضه .

(٣) الصنو : القريب والنظير .

بَطِينَةَ رَسْمٍ لِلرَّسُولِ وَمَعَهُدُ
وَلَا تَنْمَحِي الْآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَةٍ
وَوَاضِحُ آثَارِ وَبَاقِي مَعَالِمِ
عَرَفْتُ بِهِ رَسْمَ الرَّسُولِ وَعَهْدِهِ
فَبُورِكَتْ يَا قَبْرَ الرَّسُولِ وَبُورِكَتْ
وَبَكِّي رَسُولَ اللَّهِ يَا عَيْنَ عِبْرَةٍ
وَجُودِي عَلَيْهِ بِالْدموعِ وَأَعُولِي
وَمَا فَقَدَ الْمَاضُونَ مِثْلَ مُحَمَّدٍ
مُنِيرٌ وَقَدْ تَعَفُّو الرُّسُومَ وَتَهْمِدُ^(١)
بِهَا مِنْبَرُ الْهَادِي الَّذِي كَانَ يَصْعَدُ
وَرَبَّعٌ لَهُ فِيهِ مُصَلِّيٌّ وَمَسْجِدُ
وَقَبْرًا بِهِ وَارَاهُ فِي التُّرْبِ مُلْحَدُ
بِلَادُ ثَوَى فِيهَا الرَّشِيدُ الْمُسَدَّدُ
وَلَا أَعْرِفُكَ الدَّهْرَ دُمُوكَ يَجْمَدُ
لَفَقَدِ الَّذِي لَا مِثْلَهُ الدَّهْرَ يَوْجَدُ
وَلَا مِثْلَهُ حَتَّى الْقِيَامَةِ يُفَقَدُ

وقد أصبح القبر الكريم مسكا يتطيب به المسلمون كلما حجوا أو اعتمروا ، فهم يزورونه ويحجون إليه ليُغرقوا أبصارهم في مشاهدته وقلوبهم في رسالته . إنه النور الذي يغمر أفئدتهم والسعادة التي تملأ عقولهم . وإن زيارته لحلم كل مسلم ومسلمة .

ودارت بالصحابة دورات من الزمن ، ثم جاءت خلافة علي بن أبي طالب زوج فاطمة بنت الرسول ، فانقسم المسلمون ، وقتل على^١ بطعنة آثمة من يد بعض الخوارج ، وأفضى الأمر إلى معاوية ، ورأى أن تكون الخلافة وراثية في أبنائه . وأغضب ذلك طائفة كبيرة من المسلمين وخاصة أهل العراق ، وقالوا أين آل البيت ؟ وأين الحسين بن علي حفيد رسول الله ؟ .

ولم تلبث عقيدة الشيعة أن ظهرت ظهوراً بينا ، كان لها هجور قديمة ، ولكننا لا نصل إلى عصر يزيد بن معاوية حتى ترتفع شجرتها ، وتتطور الحوادث ويصرع الحسين بن علي وهو في طريقه إلى شيعته بالكوفة بمكان يسمى « كَرْبَلَاء » ويُقْضَى على كل من تحدّثه نفسه من أبنائه أن يطلب الأمر^٢ لِلْحَيِّينَ دُونَ الْقِيَامِينَ عليه سواء أكانوا أمويين أم عباسيين .

وفي هذه الأثناء كان التشيع يتحول عقيدة ثابتة في نفوس من والوا علياً

وأبناءه ، وكان الشعراء يكثر من نظم المراثي فيهم . ومن أهم من نصب نفسه لهذه الغاية في العصر الأموي الكُشَيْمِيُّ شاعر زيد بن علي بن الحسين ، فله ديوان يسمى الهاشميات ، وكله ينظم على بني أمية ورثاء لآل البيت ، وأهم من رثاهم في العصر العباسي دِعْبِلٌ في مراثيه المشهورة :

مدارسُ آياتٍ خَلَّتْ من تلاوةٍ ومنزلٍ وُخِيَ مُقْفِرُ العَرَصاتِ

ويريد بالمدارس الأماكن التي يدرس فيها القرآن الكريم ، فهذه المدارس عطلت كما عطل وعفا منزل الوحي النبوي . واستمر يذكر دور العلويين وأنها نخلت وأقفرت من أهلها ، ثم أخذ يذكر قبورهم في المدينة ومكة والكوفة وكربلاء ، وما زال حتى قال موجهاً الحديث إلى من يلومه في تشيعه :

مَلَأَكَ فِي أَهْلِ النَّبِيِّ فَإِنَّهُمْ أَحِبَّائِي مَا عَاشُوا وَأَهْلُ ثِقَاتِي
فِي أَرْبِ زِدْنِي مِنْ يَقِينِي بِصِيرَةٍ وَزِدْ حُبَّهُمْ يَا رَبِّ فِي حَسَنَاتِي
بِنَفْسِي أَنْتُمْ مِنْ كَهُولٍ وَفِتْنَةٍ لَفَكَ عُنَاةٍ أَوْ لَحْلٍ دِيَاتٍ^(١)
أَحِبُّ قَصِي الرَّحْمِ مِنْ أَجْلِ حُبِّكُمْ وَأَهْرَ فِيكُمْ أُسْرَتِي وَبَنَاتِي^(٢)
لَقَدْ حُفَّتِ الْأَيَّامُ حَوْلِي بِشَرِّهَا وَإِنِّي لِأَرْجُو الْأَمْنَ بَعْدَ وَفَاتِي
وَلَوْلَا الَّذِي أَرْجُوهُ فِي الْيَوْمِ أَوْ غَدٍ لَقَطَّعَ قَلْبِي إِثْرَهُمْ حَسَرَاتِي

والمرثية طويلة ، وكلها على هذا النحو بكاء لأهل البيت ومحبة ووجد شديد ، وهذه المرثية العامة في آل البيت كانت تقترن بها مراث خاصة كثيرة ، والطريف في هذه المراثي الشيعية أن شعراءها يتافحون فيها عن عقيدة . ومن أجل هذه الناحية البارزة في تلك المراثي نجدها تمتاز بحوية قوية ، إذ العاطفة فيها تتعمق الشاعر ، ومن هنا تصبح مشاعره فوارة حارة ، تقذف سيلاً ملتهباً .

ويلور بنا الزمن وإذا بنا في القرن الرابع للهجرة ، ويحقق العلويون لشيعتهم

(١) العناية : جمع عان وهو الأسير ، والديات جمع دية وهو المكرم الذي يدفعه من أجرم .

(٢) الرحم : القرابة .

شيئاً من حلمهم ، إذ يؤسسون الدولة الفاطمية بمصر والمغرب ، ويستولى بنو حمود العلويون على قرطبة من الأمويين ، ويصبح العراق وإيران تحت حكم البويهيين الشيعة ، فلا تجفّ الدموع التي تنحدر من آفاق الشيعة ، بل يجعلون لها مواسم معلومة ، كأن الدموع أصبحت رمز عقيدتهم ، وكأن الألم العنيف أصبح ترجمانها .

وكان أهم موسم للألم والدموع يوم عاشوراء ، وهو العاشر من المحرم ، الذي صُرع فيه قديماً الحسين فهذا اليوم كان يتحول إلى مأتم كبير في كربلاء ، إذ يلبس الشيعة المسوح ويبالغون في النوح والطم والبكاء . ولا نصل إلى سنة ٣٥٢ للهجرة حتى يأمر معز الدولة البويهى حاكم بغداد أهلها بأن يغلقوا حوانيتهم ويعطلوا أسواقهم في هذا اليوم احتفالاً به ، ولم يأمرهم بذلك فحسب ، بل أمرهم أيضاً بأن يتخذوا المسوح السوداء وأن يبكوا وينوحوا في طرقات البلد ، وأن تخرج النساء مشعثات الشعور مسودّات الوجوه قد شقن ثيابهن ويدرن في البلد بالنواح والطم ! .

وهذا النواح الدائر على الحسين وآل البيت أنتج ما لا يحصى من مراث ، وهي مراث ملتاعة ولن نستطيع أن نعرض في هذا الكتيب كل ما قيل من ذلك . وقرأ هذه الأبيات للشريف الرضى يبكى جده الحسين وينوح عليه :

يا قتيلاً قوّض الدهرُ به عَمَدَ الدين وأعلامَ الهدى
قتلوه بعد علمٍ منهم أنه خامس أصحاب الكِساء^(١)
مُرْهَمًا يدعو ولا غوثَ له بأب بَرٍّ وجَدٍّ مصطفى
وبأَمٍّ . رفع الله لها علماً ما بين نسوان الورى
أى جَدٍّ وأبٍ يدعوها ؟ جَدٍّ ، يا جَدَّ أغثنى ، يا أبا
يا رسول الله يا فاطمة يا أمير المؤمنين المرتضى

(١) يشير إلى ما يروى من أن رسول الله التفت في كساء يبنى ببيت فاطمة ولف معه به عليا وفاطمة والحسن والحسين ، وقال : هؤلاء عترتي وأهل بيتي .

كَيْفَ لَمْ يَسْتَعْجِلِ اللَّهُ لَهُمُ
بِاتْقَابِ الْأَرْضِ أَوْ رَجْمِ السَّمَاءِ^(١)
حَمَلُوا رَأْسًا يَصَلُّونَ عَلَى
جَدِّهِ الْأَكْرَمِ طَوْعًا وَإِبَاءً
مَيِّتٌ تَبْكِي لَهُ فَاطِمَةُ
وَأَبُوهَا وَعَلِيٌّ ذُو الْمُلَا
لُو رَسُولِ اللَّهِ يَحْيَى بَعْدَهُ
قَعْدَ الْيَوْمِ عَلَيْهِ الْعَزَا

ولا نرتاب في أن بعض هذه الآيات كان يصيح به الناس في بغداد لحياة الشريف وبعد حياته . فكل بيت منها يثير ويحمس ، بل يفجر الدموع أنهاراً . فلا غرو أن تعاقب الشيعة من عصر الشريف الرضي إلى عصرنا ينظمون المراثي في الحسين ، وخاصة في بلدة « النجف » بالعراق ، فكل شاعر هناك مراثيه التي تفيض بالآلم . ويشارك شعراء النجف غيرهم من شعراء العراق المعاصرين ، ولحمد مهدي الجواهري قصيدة عنوانها « آمنت بالحسين » يقول فيها :

فِيَابَنَ الْبَتُولِ وَحَسْبِي بِهَا
ضَمَانًا عَلَى كُلِّ مَا أَدْعَى^(٢)
وَيَابَنَ الَّتِي لَمْ يَضَعْ مِثْلَهَا
كَمِثْلِكَ حَمَلًا وَلَمْ تُرْضِعْ
وَيَابَنَ الْبَطِينِ بِلَا بَطْنَةٍ^(٣)
وَيَابَنَ الْفَتَى الْحَاسِرَ الْأَنْزِعَ^(٤)
وَيَا غُصْنَهَ هَاشِمٍ لَمْ يَنْفَتَحْ
بِأَزْهَرِ مَنْكَ وَلَمْ يُفْرِعْ^(٥)
وَيَا وَاصِلًا مِنْ نَشِيدِ الْخُلُودِ
خَتَامَ الْقَصِيدَةِ بِالْمَطْلَعِ
يَسِيرُ الْوَرَى بِرُكَابِ الزَّمَا
نَ مِنْ مَنْسْتَقِيمٍ وَمِنْ أَظْلَعِ^(٥)

(١) الرجم : الرمي بالحجارة .

(٢) البتول : فاطمة الزهراء .

(٣) البطين : من صفات علي بن أبي طالب ، ويقول إنه بطين بلا بطنه أي بلا شره ولا نهم ،

والحاسر : الأنزاع الذي انحسر شعره عن جانبي وجهه .

(٤) يفرع : يخرج من فرع .

(٥) أطلع : أخرج .

وَأَنْتَ تَسِيرُ رَكْبَ الْخَلْوِ د مَا تَسْتَجِدُّ لَهُ يَتَّبَعُ-

وعلى هذا النحو لا يزال مصرع الحسين حتى عصرنا يوحى لشعراء الشيعة بمراثى هي الغاية في الحزن الممض والألم المحرق .

٥

ندب الدول

الدول العربية التي سقطت في خلال التاريخ الوسيط كثيرة ، وقد كانت الدولة العربية زمن بنى أمية تشمل العالم الإسلامى كله ، وما غربت هذه الدولة في أفق التاريخ وبزغت الدولة العباسية ، حتى تراءى للعين أن المحيط الذى يضم هذا العالم ويربط بينه خيط واهن . وسرعان ما طمع الولاة في الأطراف ، وطمحوا إلى الاستقلال ، ونشأت القوميات في الغرب والشرق ، فإذا العالم الإسلامى دول لا تكاد تحصى . وما يرتفع نجم دولة ويبلغ عنان السماء ، حتى يميل إلى الغروب ، ولا تقوم دولة ويشتد ساعدها ، حتى تشيخ وتهرم وهي لا تزال في شبابها . وكأنهم لم يستطيعوا أن ينسوا أيامهم وحروبهم وتقسمهم قبائل في الجاهلية ، فأعادوها جَدَّةً منذ العصر العباسى ، بل من قبله ، لولا قوة الأمويين وحسن تدبيرهم . وما كاد العباسيون يستولون على العرش حتى بدا التصدع واضحاً في بناء الدولة ، وأخذ العرب لا يطمئنون ولا يهدعون في صقع من أصقاع العالم الإسلامى وأخذت الدول تقوم ثم تسقط متعاقبة ، وكثير من الدول كان يشيع بالعبرات وأشعار الشعراء .

وأول دولة بكهاها الباكون دولة بنى أمية التي سقطت سنة ١٣٢ للهجرة ، وأهم من بكهاها أبو العباس الأعشى الشاعر المكى الذى أخذ يرسل دمه على خلفائها ، ويثن لهم ولدولتهم أنيناً ، وفيهم يقول :

ليت شعري أفاحَ رائحةُ المسكِ وما إن أخال بالخيِّف^(١) إنسى
حين غابت بنو أمية عنه والبهاليلُ من بنى عبد شمس^(٢)
خطباء على المنابر فُرُسا نٌ عليها وقالة^(٣) غير خُرُمنِ

وله فيهم أشعار وراث أخرى ، وهى كلها تفيض بالعاطفة الصادقة .
ونمضى فى العصر العباسى ، وإذا بهرون الرشيد ينكب البرامكة نكبتهم
المشهورة ، وكانوا قد استولوا على كل مرافق الدولة ، وعظم سلطانهم ، وجمعوا
الشعراء من حولهم يغدقون عليهم عطاياهم ، فلما دالت دولتهم وقف الشعراء
يبيكونهم ويسفحون الدمع عليهم ، وفيهم يقول أشجع :

كأنما أيامهم كلها كانت لأهل الأرض أعيادا

ويقول سلم الخاسر :

هوت أنجم الجَدوى^(٤) وشلت يدُ الندى وغاضت بحورُ الجود بعد البرامك
هوت أنجم كانت لأبناء بَرْمَكٍ بها يعرف الحادى طريق المسالك

ويقول الرِّقاشى ، وقد ذكر الفضل وأخاه جعفرًا :

أَلَا نَ استرحنا واستراحتْ رُكبانُ وأمسك من يُجِدِّى ومن كان يجتدى^(٥)
قللُ لمطايا قد أمنت من السرى وطىَّ الفياقى فدَّفداً بعد فدَّفدٍ^(٦)

(١) الخيِّف : ما انحدر من الجبل ، وبمكة أخفاف مختلفة لكثرة الجبال حولها ، وكلها
تنهى إلى بطائنها .

(٢) البهاليل : جمع بهلول وهو السيد ، وبنو عبد شمس : بنو أمية ، وعبد شمس : أحد
أجدادهم فى الجاهلية .

(٣) قالة : جمع قائل .

(٤) الجدوى : العطاء .

(٥) يجدى : يعطى ، ويجتدى : يستعطى ويستمنح .

(٦) الفدَّفد : الفلاة .

وَقُلْ لِلْمَطَايَا بَعْدَ فَضْلٍ تَعْطَى وَقُلْ لِلرَّزَايَا كُلَّ يَوْمٍ تَجْدَى
وَقُلْ لِلنَّايَا قَدْ ظَفَرَتْ بِجَعْفَرٍ وَلَنْ تَظْفِرَ مِنْ بَعْدِهِ بِمَسْوَدٍ

ونُظِمَ في البرامكة شعر كثير ، وخاصة لأن الشعراء من الفرس بكوا فيهم زوال السلطان من أمتهم وتحوله إلى غيرهم .

ولما قتل المتوكل الخليفة العباسي المشهور نزل الحزن بقلب شاعره البحتري ، وكان قد قتله وليُّ عهده وطائفة من الترك الذين استكثر منهم المعتصم ، واستبدل بهم العرب والفرس جميعاً ، ولم يلبثوا أن سيطروا على الدولة .

وفكر البحتري فيما صارت إليه الدولة من ذلك ، وفكر في الفرس وما قدموه لها من خدمات ، فهم الذين أقاموها ، وهم الذين رعوها خير رعاية ، حتى إذا أفل نجمهم أخذت الدولة تتكس نحو مغربها . ومرة البحتري بالمدائن ورأى إيوان كسرى : « قصره الأبيض » وما بقي من أطلاله ورسومه ، فوصفه وصفاً بليغاً رثى في أثنائه صانعيه . ونلد بهم ، ومن قوله فيهم وفيه :

حَضَرْتُ رَحْلِي الْمَيُومُ فَوَجَّهْتُ إِلَى أَيْبُضِ الْمَدَائِنِ عَنَسِي (١)
أَسْلَى عَنْ الْخَطُوطِ وَأَسَى لِحُلٍّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرَسِي (٢)
ذَكَرْتَنِيهِمُ الْخَطُوبُ التَّوَالِي وَلَقَدْ تَذَكَّرُ الْخَطُوبُ وَتُنْسِي (٣)
وَهُمْ خَافِضُونَ فِي ظِلِّ عَالٍ مُشْرِفٍ يُخْسِرُ الْعِيُونَ وَيُنْخَسِي (٤)
وَكُنَّ الْجُرْمَازُ مِنْ عَدَمِ الْإِنْسِ وَإِخْلَالِهِ بَنِيَّةُ رَمْسِي (٥)
لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّيَالِي جَعَلَتْ فِيهِ مَأْتَمًا بَعْدَ عُرْسِي

(١) العنس : الناقة القوية .

(٢) آسى : أحزن ، وآل ساسان : أكاسرة الفرس ، ودرس : دارس وعاف .

(٣) التوالي : المتتالية .

(٤) خافضون : راغدوا العيش ، والعالي : القصر الأبيض ، ويخسر : يضمف ، ويخس : يؤلم .

(٥) الجرماز : بناء بجوار القصر ، والرمس : القبر .

ونقل بعد ذلك نقلا بديعاً صورة رآها منقوشة على حيطان الإيوان ، وهي تصور معركة بين الفرس والروم ، انتصر فيها الأولون . ثم استمر يصور أيادي الفرس على العرب ويبيكهم .

وما زال العباسيون يعانون من الترك وغيرهم حتى غزا هولاكو بغداد وخرّبها ، وأزال خلافتهم ورمى بها وبالتاريخ الباهر العظيم في دجلة ، فبكى الشعراء من الأعماق ، ومن خير من بكى وناح شمس الدين الكوفي ، وفيهم يقول بأحدى مرثياته :

ماللهنازل أصبحت لا أهلها أهلى ولا جيرانها جيرانى
أين الذين عهدتهم ولعزمهم ذُلًّا تخيّرُ معاهد التيجانِ
كانوا نجومَ من اقتدى فعلهم يبكى الهدى وشعائرُ الإيمانِ
أفنتهم غيرُ الحوادث مثلاً أفنتُ قديماً صاحب الإيوان^(١)
مازلت أبكيهم وألثم وحشةً لجلهم منهم ——— الأركانِ
حتى رَئى لى كلِّ مَنْ ما وجدُه وَجَدِى ولا أشجانه أشجانى

ومن الدول التى أكثر الشعراء من بكائها والنواح عليها دول ملوك الطوائف بالأندلس فإنهم لما استغاثوا بـيوسف بن تاشفين ملك المرابطين فى المغرب ضد الأسبان الشماليين فى بلادهم ، ورأى ما هم فيه من ضعف وهن شديد ، فكر فى الاستيلاء عليهم حتى يحفظ للإسلام والعرب هذا الجزء الذى يكاد يتداعى ، ولم يلبث أن التقمهم ملكاً وراء ملك ودولة وراء دولة .

وشيع شعراء الأندلس هذه الدول بالعبرات الغزار ، إذ كانوا يرونهم خير رعاية ، وأهم الدول التى رثوها وبكوها دولة بنى الأفطس فى بطليوس ودولة بنى عباد فى إشبيلية . أما الأولى فرثاها ابن عبدون بقصيدة طويلة طارت شهرتها ، وهو يستهلها بقوله :

(١) يشير إلى إيوان كسرى .

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بِمَدِّ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ فَمَا الْبُكَاءُ عَلَى الْأَشْيَاعِ وَالصُّوَرِ^(١)
مَا لِلْيَالِي ؟ أَقَالَ اللَّهُ عَنَرَتَنَا مِنْ اللَّيَالِي وَخَاتَمَهَا يَدُ الْغَيْرِ^(٢)

واسترسل يتحدث عن الدول التي دالت من الأكاسرة والعرب في عصورهم المختلفة حتى انتهى إلى بني الألفطس فندبهم بمثل قوله :

بَنِي الْمَظْفَرِ وَالْأَيَّامُ مَا بَرِحَتْ مَرَّاحِلًا وَالْوَرَى مِنْهَا عَلَى مَسَرٍّ^(٣)
سُحْقًا لِيَوْمِكُمْ يَوْمًا وَلَا حَمَلَتْ بِمِثْلِهِ لَيْلَةٌ فِي غَارِ الْعُمَرِ^(٤)

وأما دولة بني عباد ، فعمل خير من تفجع عليها ابن اللبانة ، وقد حمل يوسف بن تاشفين المعتمد بن عباد آخر ملوكها مقيداً في أغلاله مع من بقى من أسرته إلى أعْغَمَاتٍ بالقرب من مراکش . ووقف ابن اللبانة نفسه على بكائه وبكاء أسرته ، وله قصيدة بديعة يصف فيها خروجه من إشبيلية محمولا على سفن ابن تاشفين بنهر الوادي الكبير الذي يجري أمام بلدته ، وفيها يقول :

تَبْكِي السَّمَاءُ بِمُزْنٍ رَائِحِ غَادٍ عَلَى الْبَهَائِلِ مِنْ أَبْنَاءِ عِبَادٍ^(٥)
عَلَى الْجِبَالِ الَّتِي هُدَّتْ قَوَاعِدُهَا وَكَانَتْ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ذَاتَ أَوْتَادٍ^(٦)
يَا ضَيْفُ أَفْقَرَيْتُ الْمَكْرَمَاتِ فَخُذْ فِي ضَمٍّ رَحْلَكَ وَاجْمَعْ فَضْلَةَ الزَّادِ
وَيَا مَوْئِلَ وَاذِيهِمْ لَيْسَكُنْهُ خَفَّ الْقَطِينِ^(٧) وَجَفَّ الزَّرْعُ بِالْوَادِي
نَسِيتُ إِلَّا غَدَاةَ النِّهَرِ كَوْنَهُمْ فِي الْمَنْشَآتِ كَأَمْوَاتٍ بِالْحَادِ^(٨)

(١) من أشغال العرب : لا تطلب أثراً بعد عين ، وما البكاء : ماذا يفيد البكاء .

(٢) الغير : أحداث الدهر .

(٣) سحقاً : بعداً ، الغابر هنا : المستقبل .

(٤) المزن : السحاب الممطر ، والبهائل : السادة .

(٥) الأوتاد : الجبال ، يقول إنهم كانوا أوتاد الدول في الأندلس كما أن الجبال أوتاد الأرض .

(٦) القطين : السكان .

(٧) المنشآت : السفن ، والأحاد : القبور .

والناسُ قد ملأوا العبرين واعتبروا من لؤلؤ طافيات فوق أرباد^(١)
حطّ القناع فلم تسترْ مُحَدَّرَةٌ ومزقتْ أوجه تمزيق أرباد^(٢)
حان الوداع فضجت كل صارخة وصارخ من مُقدّاة ومن فادِ
سارت سفائنهم والنوح يصحبها كأنها إبلٌ يحدو بها الحادي
كم سال في الماء من دنعٍ وم حلت تلك القطائع^(٣) من قطعَات أكبَادِ

وما نظن شاعراً استطاع أن يصل إلى ما وصل إليه ابن اللبانة في بكاء الدولة
العبادية فقد اقتطع بكاءه عليهم من فؤاده .

وعلى نحو ما بكى شعراء الأندلس دول الطوائف ببلادهم بكى شعراء مصر
بعض الدول التي لمعت ثم أفلت في أفقهم ، وأول دولة إسلامية بكوها
دولة الطولونيين ، وفيهم يقول بعض الشعراء :

كانوا مصايحاً لدى ظلم الدجى يسرى بها السَّارُونَ في الإدلاج^(٤)
انظر إلى آثارهم تلقى لها علماً بكل ثنيّة وججاج^(٥)
ولما زالت الدولة الفاطمية بكى عمارة اليمنى عليها بكاء ، فيه لدغ وحرارة ،
وتلك قطعة من بكائه عليهم وندبه لهم :

رमित يا دهرُ كفّ المجد بالشللٍ وجيدهُ بعد حُسْنِ الحَلَى بالعطل^(٦)
هدمت قاعدة المعروف عن عَجَلٍ سقيت مهلاً^(٧) أما تمشي على مهلٍ

(١) العبرين : ضفَى النهر ، واعتبروا : تعجبوا .

(٢) الأرباد : الثياب ، وهو هنا يصور نساء بني عباد وما صنمنه أثناء الرحيل من سفور ولطم
الرجوه وخش لها بالأظافر .

(٣) القطائع : السفن .

(٤) الإدلاج : السير بالليل .

(٥) الثنية : الطريق في الجبل ومثلها الفج وجمعه فجاج .

(٦) العطل : التجرد من الحل .

(٧) المهل : النحاس المذاب ، وهو من عذاب أهل النار المذكور في القرآن .

والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم ولا نجا من عذاب النار غيرُ ولى
أئمة خَلِقُوا نوراً فنورُهم من نور خالص نور الله لم يفل^(١)

وكان حريا بعمارة أن يفرح كما فرح المصريون بزوال الدولة الفاطمية
وتحول السلطان إلى صلاح الدين الذى أنقذ مصر من براثن الانحلال
الذى انتهت إليه هذه الدولة . وما نشك في أن تشيع عمارة للفاطميين هو الذى
جعل على بصره غشاوة ، فلم يشارك المصريين في أفراحهم بسقوط تلك الدولة .
ونمضى بعد الأيوبيين إلى المماليك إذ يقضى عليهم السلطان سليم العثمانى سنة
٩٢٣ للهجرة ، ونرى ابن إياس يصيح لزوال دولتهم :

نوحوا على مصرٍ لأمرٍ قد جرى من حادثٍ عَمَّتْ مصيبتُهُ الورى
زالت عساكرها من الأتراك فى غمض الميون كأنها سِنَّةُ الكرى

وتحكم مصر بعد ذلك بالعثمانيين حكماً جائراً كله بطش واستبداد
واستنزاف لخيراتها ودمائها ويزولون كما زالت الأسرة العلوية بعدهم . وطبيعى
أن لا يبكى العثمانيين ولا الأسرة العلوية باك فقد ذهبوا غير مأسوف عليهم
بل ذهبوا مع فرح الشعب العميق بزوالهم لما أشاعوا من ظلم وفساد فى
الحكم وبغى وطفیان شديد .

(١) يفل : يأفل ويغرب .

ندب البلدان

وإذا كان الشعراء يذكرون بعض الدول الزائلة فإنهم يذكرون أيضاً البلدان
حين نزلت بها الحوادث، القاصمة، أو أملت بها بعض الدول الغاصبة .
وفي كل مكان من العالم الإسلامي تجد هذا اليكاء ، في الشرق والغرب . أما في
الشرق فلعل أول بلدة حاقت بها كثرة سلاحه هي بغداد ، إذ حرقها ابن طاهر
قائد المأمون أثناء حصاره لأخيه الأمين ، فقد سلب عليها مجانيقه ، فتحولت ناراً
أتت على كل شيء فيها ، وكأن قصورها التي طالما أشاد بها الشعراء لم تكن شيئاً
مذكوراً . وأثرت هذه الحادثة المقيجة في قلوب كثير من الشعراء ، فقال بعضهم
يندبها ويكيها :

بكت عيني على بغداد لما
أصابتها من الحساد عين
فأنت أهلها بالمنجنيق
فقوم أخرجوا بالنار قترا
وصاحبة تنادي واصحابي
وقائلة تقول أيا شقيق
ومغرب بعيد الدار ملقى
بلا رأس بقارعة الطريق
ولا ولد يعوج على أيدي
وقد هرب الصديق عن الصديق

وليس بغداد وحدها التي يكاها الشعراء في العصر العباسي فقد بكوا البصرة
حين اقتحمها الزنج على سكّانها ، ويظهر أنهم كانوا يسومونهم الخسف والعذاب
ويكلفونهم من العمل فوق ما يطيقون ويحملون ، فائتمروا بهم ، وما هي إلا أن
ثاروا عليهم ، فقتلهم وخربوا ديارهم وباعوهم في الأسواق بيع العبيد . وأثر ذلك
في نفس ابن الرومي تأثراً بليغاً ، فنظم قصيدة طويلة في بكاء البصرة وأهلها
يقول فيها :

كم أغصّوا من شاربٍ بشاربٍ كم أغصّوا من طاعمٍ بطعامٍ
 كم ضنينٍ بنفسه رامَ مَنْجىً فتلّقوا حَيَيْنَه بالحسام
 كم أخٍ قد رأى عزيزَ بنيهِ وهو يُفلى بصارمٍ صمصامٍ
 كم رضيعٍ هناك قد فطموه بشبّا السيف قبل حين الفطام
 كم فتاةٍ بختامِ الله بكرٍ فضحوها جهراً بغير اكتتام
 كم فتاةٍ مصونةٍ قد سبّوها بارزا وجهُها بغير لثامٍ
 صبّحهم فكابدَ القوم منهم طولَ يومٍ كأنه ألف عامٍ

وصورَ تحريقِ الزنج لقصور البصرة ، وبكى رسومها وأطلالها ومسجدها ،
 واستنجد المسلمين واستغاث بهم على نصرتها ، ودعاهم أن ينفروا خيافاً وثيقلاً ،
 حتى ينتقموا منهم شر انتقام .

ونغضى إلى عصر الحروب الصليبية فنجد الشعراء ييكون مدن الشام التي
 كانت تسقط في أيدي الصليبيين ، ولم ييكونوا مدينة كما بكوا بيت المقدس حين
 استولى عليها الفرنج سنة ٤٩٢ للهجرة ، ومن طريف ما قيل فيها :

أحلّ الكفرُ بالإسلام ضيّماً يطول عليه للدين النحيبُ
 فحقُّ ضائعٌ وحِمى مُباحٌ وسيفٌ قاطعٌ ودَمٌ صَيِّبٌ^(١)
 وكَم من مسلمٍ أسى سليماً ومسلمةٍ لها حرمٌ سليبُ
 أما لله والإسلام حقٌّ يدافع عنه شُبّانٌ وشيبُ

على أن موجة الصليبيين لم تلبث أن دُفعت بقوة إلى الوراء ، ولم تلبث أن
 حلت أشعارُ الفتح والظفر محل أشعارِ التذب والرتاء .

ومن البلاد التي بكأها المسلمون صقلية حين سقطت في أيدي النورمان حول
 منتصف القرن الخامس للهجرة ولشاعرها ابن خديس قصائد مختلفة يرثيها فيها
 ويندبها ، ومن قوله في بعض قصائده :

أرى بلدى قد سامه الرومُ ذلةً وكان بقوى عزه متقاعسا
وكانت بلاد الكفر تلبس خوفه فأضحى لذلك الخوف منهن لابسا

وفى نفس التاريخ هاجم البدو القيروان وخربوها ، وبكاها شعراؤها هي
الأخرى ، ومن قول شاعرها ابن شرف :

أم للقيروان أنه شَجَوِ عن فؤادٍ بجاحم الحزن يصلى
حين عادتُ به الديار قبوراً بل أقول الديار منهن أخلى
بعد يومٍ كأنما حُسِرَ الخَلْدُ قُ حُمَاءٌ به عوارى رَجَلَى
مُزَقُوا فى البلاد شرقاً وغرباً يسكبون الدموع هطلاً ووَبلاً

ولعل قطرا إسلاميا لم تُبْسِكْ بلدانه ومدنه كما بُكيت مدن الأندلس وبلدانها ،
فقد أخذ الأسبان الشماليون يستخلصونها لأنفسهم ، وأخذت تتساقط منذ عصر
ملوك الطوائف فى حجورهم كما تتساقط أوراق الخريف . وكانت كل مدينة
تسقط لا تعود أبداً ، والمسلمون يرون ذلك رأى العين ، يرون ما يهدد ديارهم من
غزو ودمار ، وكلمتهم متفرقة وأهواؤهم غير مجتمعة ينابذ الأخ أخاه وتنابد المدينة
أختها ، والعدو على الأبواب يتربص بهم الدوائر . وما زال الشعراء هناك يحذرون
وينذرون ويستغيثون ويستنصرون ، وكلما ضاعت بلدة أو مدينة ذرفوا الدموع
حارة سخيّة . ومن البلدان التى أكثر الشعراء من رثائها ونذبها حين استولى عليها
الأسبان طُلَيْطَلَةٌ وبَلَنْسِيَّةٌ وشاطبة وقُرْطبة وجِيَّان وإشبيلية ، ومن أروع
ما بُكيت به الأخيرة قول أبى البقاء الرُنْدى ، وقد عرض لما سلب من البلاد قبلها :

اسألْ بَلَنْسِيَّةً ما شأنُ مُرْسِيَّةٍ وأين شاطبةٌ أم أين جِيَّانُ
وأين قرطبةٌ دار العلوم فكُم من عالم قد سما فيها له شانُ
وأين حِمصٌ^(١) وما تحويه من نَزَمٍ ونهرُها العذبُ فياضٌ وملآنُ

(١) حمص : لإشبيلية .

بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
ورُبَّ أمٍّ وطفلٍ حيل بينهما كما تفرَّقُ أرواحٌ وأبدانُ
وطفلةٌ مثل حُسن الشمس إذ طلعت كأنما هي يا قوتٌ ومرَّجانُ
يقودها المِليج^(١) للسكر وه مكرهة والعين باكيةٌ والقلب حيرانُ
لمثل هذا يذوب القلبُ من كمدٍ إن كان في القلب إسلامٌ وإيمانُ

ويلور الزمن بنا دورات حتى نصل إلى العصر الحديث ، فإذا القصة تعاد
فصولها ، وإذا أوروبا الشرقية تجمع أمرها أمام الخلافة التركية تريد أن تخرجها
من ديارها ، وتردها إلى آسيا على أعقابها وتكون حروب ودماء . وتُغلبُ تركيا
على أمرها من حين إلى حين ، وتضيق بعض بلدانها . ولشوق قصيدة يبكي فيها
« أدريّة » حين استولى عليها البلغار سنة ١٩١٢ للميلاد ، وقد سماها الأندلس
الجديدة ، إشارة إلى أن الكارثة فيها تجديد لكارثة المسلمين في الأندلس العربية ،
فهما جرحان ، جرح قديم لم يلتئم بعد ، وجرح لا يزال يتزف بالدماء . وفي
هذه القصيدة يقول :

عيسى سيِّلك رحمةً ومحبةً في العالمين وعصمةً وسلامُ
اليوم يهتِف بالصليب عصابُ هم للآله وروحه ظلامُ^(٢)
خلطوا صليبك والخناجر والمُدَى كلُّ أداةٍ للأذى وحيامُ
أوما ترام ذبحوا حيرانهم بين النبوت كأنهم أغانم
كم مزرع في حِجر نعمته غداً وله على حدِّ السيوف فِطامُ
وصبيبةٌ هتكت خيلةً طهرها وتناثرت عن نوره الأكامُ^(٣)
وأخى ثمانين استبيح وقاره لم يُقن عنه الضعف والأعوامُ

(١) المِليج : الكافر من المعجم .

(٢) المصائب : جمع عصابة وهي الجماعة ، وظلام : جمع ظلام .

(٣) الحميلة : الروضة والشجر الملتف .

ولما نكب الفرنسيون دمشق سنة ١٩٢٦. وسلطوا عليها مدافعهم وقذائفهم ،
وأحالوها أنهارا من الدم وتلالا من الرماد والحراب بكأها شوق بقافيته المشهورة ،
وفيها يقول :

رباعُ الخُلْدِ وَنَحْمُكَ مادهاها أحقُّ أنها دَرَسَتْ أَحَقُّ
وهل عُرفُ الجنانِ مَنْضَدَاتُ^(١) وهل لنعيمهن كَأَمْسٍ نَسَقُ
وأين دُمَى المقاصر من حِجَالِ^(٢) مُهَتَّكَةٍ وَأَسْتَارٍ تُشَقُّ
بَرَزْنَ وفي نواحي الأَيْكِ^(٣) نَارٌ وخَلَفَ الأَيْكِ أَفْرَاحُ تَرْقُ
بليلٍ للقذائفِ والمنايا وراءَ سماءٍ خَطَفُ وَصَقُ
إذا عَصَفَ الحديدُ احمرُّ أَفَقُ على جنباتِهِ واسودَّ أَفَقُ
والحريرةُ الحمراء بابٌ بكلِّ يدٍ مَضْرُجَةٍ يَدَقُ

وتجاوبت مع شوق وشعراء العروبة في الشرق صيحاتُ إخوانهم شعراء
المهجر في الغرب ، يكون ويصيحون ويولولون على ما أصاب دمشق من فظائع
الفرنسيين ، ولنسيب عريضة من منظومة :

صليلُ سلاحٍ وقرعُ طبولٍ وجُنْدٌ قَسَاةٌ تسوقُ الحولُ
وفوق النياقِ حَمَاةُ القَبِيلِ تدلُّوا قَتِيلًا بِجَنبِ قَتِيلِ

ولعل بلدا عربيا في عصرنا لم ييكه الشعراء كما بكوا فلسطين الشهيذة ، التي
سالت دماء أبنائها في ساحاتها ، وشرّد اليهود البقية الباقية منهم في أطراف العالم
العربي وعلى المشارف والحدود . ولا تزال المأساة ، أو قل لا يزال مآعها قائما ،
والعالم الإسلامي كله يليس السواد من أجلها ، ويعلن الحداد على ما أصابها
وأصاب العرب فيها .

(١) مَنْضَدَاتُ : منسقات .

(٢) المقاصر : الغرف ، والحِجَالُ : جهاز العروس .

(٣) الأَيْكِ : الشجر الكثير المتجمع .

ومنذ وَعَدَ « بلفور » لليهود والعرب ينتظرون اليوم المشئوم ، يوم خروج أبناء عمومته من ديارهم ، وهو ما لم يحدث في العالم لا قديما ولا حديثا ، فلم نسمع قبل اليوم أن أمة بغت على أخرى ، وسلبتها وطنها وخلدتها وفراديسها ، يعينها في ذلك من يتشدقون بالحريات . وحز ذلك في أنفس العرب فأبوا أن يتركوا عرينهم دون أن يلطخوه بالدماء ، وتعاقدت دولهم ، وخاضت غمار حرب رجفت لها الأرض والسماء ، وقد تعالى في أثنائها صياح الشعراء في البلاد العربية ، من مثل قول علي محمود طه من قصيدته « نداء الفداء » :

أخى جاوزَ الظالمون المَدَى فحقَّ الجهادُ وحقَّ الفِدا
أنزلكهم يغصبون العروب نة تجدَّ الأبوَّة والسُّودَّاءُ
وليسوا بغير صليل السيوفِ يحييون صوتًا لنا أو صدَى
فجرُّدُ حسامك من غمده فليس له بعدُ أن يُغمدا

والقصيدة كلها على هذا المنوال صراخ في العرب حتى يسارعوا لنجدة فلسطين التي تأسَّها اليهود للعجيين ، وهم يشعلون لها مدهامهم على أعين العرب من مسلمين ومسيحيين .

ومنذ وقعت هذه الحرب المشئومة وخرج أهل فلسطين من ديارهم ، وشعراء العرب في مختلف بلدانهم ييكون الوطن الضائع ، ويتفجعون عليه ، فهذا زكي المحاسني يهتف في دمشق :

ما هُزِمنا لكي نموت ونفنى ونُبكي الحياة إن نحن عشنا
نحن قومٌ ما نام فينا على الضيِّ مـ أَيْ لا قَلَى الدهر هُنا
كفكف الشعر عن مرأى فلسط ين فَشِعْرُ الدماء أبقى وأغنى
غَدُنَا المرتجى كما رمت آتٍ بانتقام سيغسل العار عَنَّا

ويرتفع هتاف الشعراء في كل مكان ، فمن ذلك قول عادل الغضبان في قصيدة له دعاها : « صوت العرب » :

كفأك يا غَرْبُ طغياناً ومفسدةً ورميك الشرق بالويلات والحربِ
هذى فلسطينُ ما زالت مضرّجةً أرجاؤها بدمٍ في الله منسكبِ
شردتَ أبناءها ظلمًا وسقمهمُ إلى الردى عُصْبًا تُلقَى على عُصَبِ
فلا الأذانُ ولا الناقوس يُسمعنا وحى الهدى في فم الإسلام والصلبِ

ويقول محمد عبد الغنى حسن من قصيدة طويلة :

أرضَ البطولة هذه عبراتي تهْدِي إليكِ وهذه حسرائي
دهمتك من عُصَب الزمان بطانةً أفاقَةٌ منهومةُ الشهواتِ
لا تستقرّ على الثرى أحداقهم إلا على العدّوات والغاراتِ
كانوا على الإسلام منذ قيامه حرباً وكانوا مبعث النكباتِ

ولفدوى طوقان قصيدة بعنوان « بعد الكارثة » تتفجع فيها على الوطن
السليب ، ومن قولها فيها :

يا وطني ما لك يُخْفِي على روحك معنى الموت معنى القَدَمِ
جرْحُك ما أعمق أغواره كم يتنزّى تحت ناب الألمِ
ستنجلي الغمرةُ يا موطني ويمسح الفجرُ غواشي الظلمِ
والأملُ الظامئُ مهما دَوَى لسوف يُرَوِّى بلهيبِ ودمِ

ونحن نأمل معها أن تنكشف هذه الغمة سريعاً عن صلب فلسطين ، وأن تعود
إلى أبنائها مشرقة الجبين ، لم تزدها المحنة التي أملت بها وصرتها صهراً إلا قوة فوق قوة
وقدسية فوق قدسية . إنه الصباح الذي ينتظره العرب جميعاً ، ولأنهم لواصلون إليه
مهما دجت الدنيا ومهما طال الطريق .

لفصل الثاني

التأبين

١

معنى التأبين

أصل التأبين الثناء على الشخص حيا أو ميتا ، ثم اقتصر استخدامه على الموقى فقط ، إذ كان من عادة العرب في الجاهلية أن يقفوا على قبر الميت ، فيذكروا مناقبه ، ويعددوا فضائله ، ويُشبهوا بحامده . وشاع ذلك عندهم ، ودار بينهم ، وأصبح في سننهم وعاداتهم ، ولو لم يقفوا على القبور كأئهم يريدون أن يحتفظوا بذكرى الميت على مر السنين .

ونحن نجد دوائر على ألسنة الرجال والنساء ، فهم جميعا لا يكتفون بتصوير شعورهم الحزين ، بل يضيفون إليه إشادة بالميت ومناقبه ، كأئهم لا يكونه فقط من أجل رابطة الدم التي تربطهم به ونزوله وراء أستار وأحجار ، بل هم يكون فيه نموذج المروءة كما يتمثلها أهل البادية ، يكون فيه الكرم والشجاعة والوفاء وحماية الجار وإغاثة الملهوف والحلم والأنفة والحزم وركوب الصعاب والسماحة والفضاحة والسيادة والشرف وكل ما يزين الرجل في رأيهم من صفات وخلال .

وكأئما كان غرضهم من تأبينهم أن يصوروا تصويرا تاما مدى الخسارة والمصيبة في الفقد . ونرى هذا واضحا في تأبين النساء لأخويها حضر ومعاوية ، فهى تندبهما بقلب محترق من جهة ، وهى تؤبينهما لتصوير فضائلهما وتوضح ما خسرتة فيهما قبيلتهما .

وكان من عقائدهم أن القتل لا يهدأ في قبره ، حتى تصيب القبيلة

من دم قاتليه ، وكانوا يحرمون على أنفسهم الخمر وكل الملذات إلى أن يدرکوا وترهم ، ودفعهم ذلك إلى أن يكبروا مصيبتهم في القتل وأن يسبغوا عليه من الخلال والحامد ما يشعل الحرب ويؤجج نيرانها فلا تطفئ أبداً .

وما حياتهم في الجاهلية إلا سلسلة حروب ومعارك طاحنة ، فكانوا لا يدفنون قتيلًا إلا: ليستعملوا لدفن أخيه وبكائه وتأبينه والإشادة ببطولته وكرمه ، وما أعطى لقييلته من ماله وروحه . ولم يؤبنوا أبطالهم وقتلاهم فحسب ، بل أبشروا أيضاً أشرافهم وساداتهم وإن ماتوا حتف أنوفهم ، فخرا بهم واعتزازا . وكانوا يحبرون على القبور ، فن استعاذ بقبر سيد أو شريف حمل أهله مغرمة ، وكثيراً ما ذبحوا على أجدادهم إبلهم وخيلهم ، كأنما يريدون أن يرضوا عظامهم ، وأن يعترفوا لهم بوفرة ما ذبحوا للناس من إبل وأنعام . ودائماً نجدهم يستسقون لهم السحاب ، ويستنزلون لهم الغيث حتى تسرع قبورهم وتصبح رياضاً عاطرة .

وكل ذلك احتفال بالميت وممجيد ، وبقياساً عليه وعلى ذكراه ، وكان أهم ما يخلده في رأيهم هذه الأبيات من الشعر التي يصوغ فيها الشاعر محاسنه ومناقبه ، وكأنه يريد أن يحفرها في الأذهان حفراً ، حتى لا تمحى على مر الزمان ، وحتى لا يصيبها شيء من زوال أو نسيان . إنها كل ما يملك ليبقى على الميت بينهم وليجعله دائماً ماثلاً أمامهم .

٢

تأبين الخلفاء والوزراء

هذه الصورة التي ذكرناها للتأبين في الجاهلية ، والتي كانت تعتمد على الخلال والمناقب التي يحترمها العربي القديم ويجلها في الرجل ، والتي تجمعها كلمة المروءة ، لم تلبث أن دخلت عليها تعديلات مع ظهور الإسلام ورسائله السمحة فإنه عدل في المثل الأعلى عند العرب ، ورفع كثيراً من الخلال ووضع مكانها

خلالا جديدة .

لقد كان العربي في الجاهلية يعد سفك الدماء حسنة كبرى من الحسنات ، فجاء الإسلام محرماً للدماء رافعاً لما كان منها في القديم ، كما رفع كثيراً من المآثر الجاهلية ، وأقام مكانها مآثر جديدة من العدل والتقوى والزهدي في الحياة ، وإخلاص الوجه لله . وهذه المثالية الجديدة كان لها شأنها في الرثاء ، فقد أخذت تحلّ فيه صفات لم يكن العربي الجاهلي يعنى بها ولا كان يفكر فيها . ويتضح ذلك في تأيين الخلفاء ، إذ كانوا أصحاب الدولة الإسلامية والقائمين على نشر تعاليمها ، واحترام سنّها في الجزيرة العربية وخارج الجزيرة . فطبيعي أن يفكر الشاعر أول ما يفكر حين يلم برثائهم في الدولة من بعدهم وما سلكوه في حكمهم من عدل ، وما أخذوا به أنفسهم من طاعة الله ورسوله والعمل بدعوته فهم خلفاؤه ، وهم أمناؤه على المسلمين من حولهم وعلى رسالته وما تضمنى به الانموس من مُثُل وصفات نبوية .

وأول خليفة للرسول صلى الله عليه وسلم هو أبو بكر الصديق الذي حمل لواء الدعوة الإسلامية من بعده وتناول مصابيحها ، فأضاء بها شرق الجزيرة وغربيتها : بلاد فارس والشام بعد أن لم تثنات العرب المبعثر في الجزيرة ، ودفعه دفعا إلى الخارج ، فتراموا كالموج ، لا يحول بينهم وبين ما يريدون حائل ، وكأتما ناولهم بيده الكريمة الكرة الأرضية ليزرعوا في أى مكان شاءوا الدعوة الإسلامية ، ويحسبوا لله ولأنفسهم ثمارها ، وفيه يقول حسان مؤبنا :

إذا تذكّرتَ شَجْوَاً من أخى ثقةٍ فاذكر أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
خيرَ البريةِ أبقاها وأعدّها بعد النبيّ وأوقاها بما فعلا
الثانيَ اثنين والحمودَ مشهدهُ وأولَ الناسِ طرّاً صدّقَ الرُّسُلَا
وكان حبّ رسولِ الله قد علموا من البريةِ لم يعدل به رجلا

وحسان يتحدث في تأيينه لأبي بكر عن فضائله المعروفة عند المسلمين ، إذ يعرض لمنزلته من الرسول ، وكيف كان صاحبه في الغار وفي الهجرة من مكة

إلى المدينة ، ويذكر أنه كان أول المصدقين به وبرسالته ، ولذلك دعى الصّدّيق . وكل ذلك ذائع مستفيض عن أبي بكر ، أما تقواه وزهده وصالح سعيه في الدين وإذلاله للعزاه وللآخرة ، فكل ذلك مشهور بالوجه الصحيح والشهادة الثابتة ، وأما رفقه بالمسلمين وعدله بينهم وما شئت من سيرة ذكية نقية طاهرة ، فالأمة الإسلامية مجمعة عليه والدلالة اليقينية قاطعة به . نَضَّرَ الله وجهه .

وليس هناك ريب في أن تأيين حسان جديد في اللغة العربية ، فهو لم يتحدث حديث الجاهليين عن موتاهم ، وإنما تحدث حديث المسلمين ، تحدثت بسيرة لم تكن تعرفها الجاهلية ، فيها البر والعدل والتقوى والإسلام ، وفيها الخير ومحبة الرسول وإيثاره على كل الأصحاب والأنصار . وبهذه الخلال والمناقب الجديدة كانت فاجعة الإسلام والمسلمين فيه .

وخلفه عمر ، فسار في الناس بسيرته وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من قبله واقتعد من العدل والزهدي في الدنيا مكانا تنقطع الرقاب دونه . وما زال يحفظ الدولة بل ما زال يمد في أطناها شرقاً وغرباً ، والدنيا تزحف إلى العرب من تحت أقدامه وهم يجوبونها فاتحين مجاهدين في الله ورسوله حق الجهاد ، قد استحبوا الآخرة الباقية وآثروها على الدنيا الفانية ، والعالم القديم يلهج باسمه ، وجنوده منصورة في كل مكان يسبّحون بآلاء ربهم وما أفاءه على الإسلام . ولم تلبث أن امتدت إليه يد آئمة في الظلام ، قطعته أبو لؤلؤة المجوسى طعنة مسمومة ، وهو قائم يصلى في المحراب . فبكاه المسلمون وأبنوه تأييناً رائعا ، فن ذلك قول الشماخ :

جَزَى اللهُ خَيْرًا مِنْ إِمَامٍ وَبَارَكْتَ يَدُ اللهِ فِي ذَاكَ الْأَدِيمِ الْمَرْقِ
فَنْ يَجْرِي أَوْ يَرْكَبُ جَنَاحِي نَمَامَةٍ لِيُذَرِّكَ مَا قَدَّمْتَ بِالْأَمْسِ يُسَبِّقُ
قَضِيَّتْ أُمُورًا ثُمَّ غَادَرَتْ بَعْدَهَا بَوَائِجُ^(١) فِي أَكْصَاهَا لَمْ تَفْتَقِ
أَبْعَدُ قَتِيلٍ بِالْمَدِينَةِ أَظْلَمَتْ لَهُ الْأَرْضُ تَهْتَزُّ الْعِضَاهُ^(٢) بِأَسْوَقِ

(١) بوائج : جمع بائجة وهي الداهية .

(٢) العضاه : شجر ، وأسوق : جمع ساق .

تَظَلُّ الْحِصَانُ الْبَكْرُ يُلْقِي جَنِينَهَا نَثَا^(١) خَبَرَ فَوْقَ الْمَطِيِّ مَعْلَقٌ

وهو يستهل كلمته بالدعاء لعمر أن يجزيه الله عن الرعية خيرا وأن يبارك أديمه الممزق بسكين أبي لؤلؤة . ثم انتقل يتحدث عن إمارته على المسلمين واستصلاحهم وتفقد مصالحهم ، فقال إن من أراد إن يبلغ ذلك أو يرتقى إلى غايته حتى لو ركب جناحي نعامه فإنه سيظل حسيرا مسبوقا . وتوجه إليه بالخطاب يقول له إنك قضيت أمورا وأحكمتها بجميل رأيك وتركت وراءها دواهي لا تزال في أكمامها وأعطيتها لم تُفَشَّقْ ولم تُكشَّف . ثم أخذ يتحدث عن فظاعة الحادثة متعجبا أن يورق ويهتز شجرُ العضاة بعد أن نزلت بالمسلمين هذه الفاجعة التي لم تسمعها النساء حتى سقط حملهن استشعاراً لما تطوى من شر مستطير .

وهذه الصورة من الرثاء جديدة جدة واضحة ، فإن الشماخ لم يدع لعمر بأن تنزل السحب بقبه كما كانوا يدعون في الجاهلية ، بل دعا الله له ، واستمطر رحمة عليه ، ثم تحدث عن سياسته للمسلمين وأمورهم مستعظما للكارثة التي سقطت عليهم كأنها الصاعقة .

وخلف عمرَ عثمان ، وكانت في عهده أول فتنة في الإسلام ، إذ ثارت به طائفة من شذاذ العرب ، وما زالوا به حتى قتلوه وهو يتلو القرآن الكريم ، فقال حسان :

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ^(٢) عُثْوَانُ السُّجُودِ بِهِ يَقْطَعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقَرَأَنَا

وخلفه على فلم يستطع أن يلم ما تشعث إذ طعنته يد طائشة حالت بينه وبين ما يريد من جمع المسلمين على كلمة سواء ، فذهب إلى ربه راضيا مرضيا ، وفيه يقول أبو الأسود الدؤلي :

أَفِي شَهْرِ الصِّيَامِ جَعْتُمُونَا بِخَيْرِ النَّاسِ طُرًّا أَجْمَعِينَا
قَتَلْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا وَخَيْسَهَا^(٣) وَمَنْ رَكِبَ السَّفِينَا

(١) نثا : شائع ، وتعليق الخبر فوق المطي : كناية عن أنه سارت به الركبان وتقاذفته البلدان .

(٢) أشمط : شائب .

(٣) خيسها : ذلها .

ومن لبس النعالَ ومن حَذَّأها ومن قرأَ المثنائَ والمئينا^(١)
يُقيم الدينَ لا يرتاب فيه ويقضى بالفرائض مستئينا

و واضح أنه يؤبنه بمحامد ومناقب إسلامية خالصة ، فهو خير الناس ديناً
وهب نفسه لربه يتلو قرآنه مثنائيه ومئينه ، ويقوم شريعته على الحدود والفرائض التي
شرعها الإسلام ، فهو الخليفة التقي الصالح العدل الذي سار على الطريق النير
لا يحيد ولا يميل ، كأنه قسطاس الدين المستقيم ومعياره السليم .
ونعني في الدولة الأموية فنجد مع وفاة كل خليفة مرأى مختلفة ، ولعل أهم
خليفة وثاء الشعراء عمر بن عبد العزيز ، إذ سار في الناس سيرة عادلة زاهدة ،
كلها تقوى وخشية من الله ، وإيثار للدار الباقية ، وفيه يقول جرير :

يَنْعَى النَّعَاءُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَنَا يَا خَيْرَ مَنْ حَجَّ بَيْتَ اللَّهِ وَاعْتَمَرَ
حُجِّلَتْ أُمْرًا عَظِيمًا فَاصْطَبَرَتْ لَهُ وَقَتَ فِيهِ بِأَمْرِ اللَّهِ يَا عُمَرَا
فَالشَّمْسُ طَالَعَةٌ لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ تُبْكِي عَلَيْكَ نَجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَ

وجرير يذكر له تقواه وعبادته وحججه بيت الله ، ويفضله على كل المسلمين
في صلاحه وزهده ، ويشئ على اضطلاعه بأمر ورعيته ، وإقامته لشريعة ربه ،
ثم يصور عظم المصيبة فيه ، فيقول إن الشمس طالعة غير كاسفة تبكي عليه
نجوم الليل والقمر .
ويدور الزمن ، ويذهب الأمويون ويأتى العباسيون ، ويكثر الشعراء ،
ويكثر الرثاء ، وخاصة إذا كان الخليفة عادلاً ، لا يريد غير ربه بعمله ،
ولسكن الخاسر في ثالث خلفائهم المهدي يرثيه ويؤبنه :

وَبَاكِئَةً عَلَى الْمَهْدِيِّ عَبْرَى كَأَنَّهَا وَمَا جُنَّتْ جُنُونَا
وَقَدْ خَشَتْ مُحَاسِنَهَا وَأَبْدَتْ غَدَائِرَهَا وَأُظْهِرَتْ الْقُرُونَا^(٢)

(١) حذا النعل : قدرها وقطعها ، والمثنى : آيات القرآن الكريم .

(٢) الغدائر والقرون : غصن الشعر .

لئن بَلَى الخليفة بعدَ عشرٍ^(١) لقد أبقى مساعى ما بَلينا
سلامَ الله غُدوةَ كل يومٍ على المهديِّ حين ثَوَى رَهِيناً
تركنا الدين والدنيا جميعاً بحيث ثوى أميرُ المؤمنين

ولإذا كان الخلفاء العباسيون قد سالت على قبورهم دموع الشعراء فإن
الخلفاء الفاطميين في مصر قد أهاجهم أيضاً حين وفاتهم ، فنثروا الدموع الغزار
على أجسادهم ، فمن ذلك قول حَظِيّ الدولة أبي المناقب عبد الباقي في رثاء
المستنصر :

وليس ردَى المستنصر اليوم كالرَدَى^(٢) ولا أمرُهُ أمرٌ يُقاس به أمرُ
لقد هاب مَلَكُ الموت إتيانَه ضُحَى ففاجأه ليلاً ولم يطلع الفجر
فأجرى عليه حين مات دموعنا سماء ، فقال الناس لا بل هو القطرُ
وقد بكت الخنساء صَخراً وإنه ليبيكيه من فَرَطِ المصاب به الصَّخْرُ

وهذا ندب وبكاء ، وكان يشيع عند الشيعة كما قدمنا في غير هذا الموضع
بكاء آل البيت ، فتناول الشعراء قبساً من هذا البكاء ، وكتبوا عليه مراثيهم في
الفاطميين .

وكلما وُجِدَتْ خلافة وجد معها هذا البكاء وما يُطَوَّى فيه من تأبين ، نجد
ذلك عند خلفاء بني أمية في الأندلس منذ عبد الرحمن الناصر ، كما نجده عند
خلفاء المغرب في دوله المختلفة من مؤحدين وغيرهم ، إذ كان ذلك سُنَّةً في
العالم الإسلامي ، لا حين يموت الخلفاء فحسب ، بل حين يموت الأعيان
والأشراف .

وكان للوزراء نصيبهم وحظهم من الرثاء ، وخاصة حين ينكبهم الخلفاء ،
ومن بكاهم الشعراء كثيراً من وزراء الدولة العباسية ابن الزيات ووزير المتوكل ،

(١) يشير إلى أنه ولي الخلافة مدة عشر سنوات .

(٢) الردى : الموت .

وفيه يقول الحسن بن وهب :

يكاد القلبُ من جَزَعٍ يطيرُ إذا ما قيل قد هلك الوزيرُ
أمير المؤمنين ! هدمتَ رُكنًا عليه رُحاكمُ كانت تدورُ
سيبكي المُلْكُ من جزعٍ عليه وتبكي حين تضطرب الأمور

ومن الوزراء الأندلسيين الذين بكاهم الشعراء المنصور بن أبي عامر وزير هشام الملقب بالمعتد ، وهو شخصية فذة ، وكان له مجلس معروف كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم والأدب ، وهو الذي بنى مدينة الزاهرة بالقرب من قرطبة ، وله حروب وغزوات كثيرة في الأسبان الشماليين ، وبما قيل فيه وكتب على قبره :

آثارُهُ تُنْيِيكَ عن أوصافِهِ حتى كأنك بالعيان تراهُ
تالله لا يأتي الزمانُ بمثله أبداً ولا يحصى الثغورَ سواهُ

ومن الوزراء المشهورين لآخر عهد بني أمية هناك حسان بن مالك بن أبي عبَّدة ، وفيه يقول صديقه أبو عامر بن شهيد من مرثية طويلة :

أفى كل عامٍ مصرعٌ لعظيمٍ ؟ أصاب المنايا حادثي وقديمي
وكيف اهتدأت في الخطوب إذ أدجَّتْ وقد فقدت عيناى ضوءَ نجوم
مضى السلفُ الوضاح إلا بقيةً كغرة مسودَّ القميص بهيم^(١)
أبا عبدة إنا غَدَرْنَاكَ عند ما رجعنا وغادرناك غيرَ ذم
أنخذل من كنا نرودُ بأرضه ونكرعُ منه في إناء علوم^(٢)
ويجلو العمى عنا بأنوار رأيه إذا أظلمت ظلمات ذات غوم

(١) يقول إنه لم تبق إلا بقية قليلة من السلف الأغر ، وهى تشبه في قلتها الغرة في الفرس الأسود ، والبهيم : الخالص السواد .
(٢) نرود : من راد العشب أى طلبه ، ونكرع : نشرب .

وعلى نحو ما أكثر شعراء الأندلس من رثاء وزرائهم أكثر المصريين من رثاء من استوزره الفاطميون وغيرهم، ومما قيل في طلائع بن رزيك :

أفـى أهل ذا النـادى عـلـيـمُ أسـأـلـهـُ فإني لما بى ذاهبُ اللبِّ ذاهلُ
سمعتُ حديثاً أحسد الصُّمِّ عنده ويذهل واعيـه ويخرس قائله
وإني أرى فوق الوجوه كآبةً تدلّ على أن الوجوه ثواكله

ورثاء وزرائنا في العصر الحديث يحتل مكاناً بارزاً في شعر حافظ وشوقي ، والأخير في رثاء مصطفى فهمي أحد رؤساء الوزارة المصرية في خاتمة القرن الماضي وفتحة هذا القرن :

يا أيها الناعى أبا الوزراء هذا أوانُ جلائل الأنباء
حُثَّ البريد مشارقاً ومغارباً واركب جناحَ البرقِ في الأرجاء
واستنبكِ هذا الناسَ دمعاً أو دمأً فالـيـومُ يـومُ مـدـامـعٍ ودماء
لم تنعَ للأحياء غير ذخيرةٍ ولتْ وغير بقية الكُبراء

وراء شوقي كثير من الشعراء الذين رثوا وأبـنـوا من توفوا من الوزراء ، تسعفهم في ذلك الصحف اليومية التي تخرج مع كل صباح ومساء .

تأبين الأشراف والأجواد والقواد

لم يترك شعراؤنا شريفا على مر العصور دون أن يقفوا بقبره وينثروا مدامعهم عليه . وكان مقياس الشرف في الجاهلية التميز في القبيلة بالكرم والشجاعة والسيادة ، ومن أقدم المراثي التي نذكرها في هذا الجانب مرثية أوس بن حجر في

فضالة بن كلكلة الأسدى ، وفيها يقول :

أيتها النفسُ أجلى جزّعا إن الذى تمحّذين قد وقعا
 إن الذى جمّع السباحة والنّجّة دة والحزم والقوىُ جمّعا
 أودى^(١) وهل تنفع الإشاعةُ من أمرٍ لمن قد يحاول اليّدعا
 الألعى الذى يظن لك الـ ظنّ كأن قدرأى وقد سمعا^(٢)
 المخلفُ المتلفُ المرزأ لم يمتّع بضعفٍ ولم يمتّ طبعاً^(٣)

وهو يدور فى تأيينه حول المعانى والصفات التى كان يقدرها العرب فى الجاهلية ، والتى كانوا يطلبونها فى أشرافهم وأصحاب النباهة والسيادة . وما تزال هذه الخلال وما يماثلها دائرة على ألسنة الشعراء فى مراثيهم حتى عصرنا الحاضر . ونغضى بعد العصر الجاهلى إلى العصر الإسلامى ، فتلقّى الأرض بكنوزها إلى حجور العرب ، وتتكون طبقة كبيرة من الأشراف ، يكون من بينها الولاة وكبار القواد والأجواد ، وهى لا تقف عند حد ، فقد بالغ العرب فى طلب المديح وأن تجرى ألسنة الشعراء فيهم بالثناء العطر ، فكانوا إذا رحلوا عن دنياهم شيوعهم بالعبرات . ومن طريف ما شاع على الألسنة فى العصر الإسلامى مطلع قصيدة لابن قيس الرقيّات فى شريف وقائد من قواد العراق هو طلكحة الطلحات ، إذ يقول :

نضر الله أعظماً دفنوها بسجستان طلحة الطلحات

ولعل الشعراء لم يرحلوا إلى وال فى هذا العصر كما رحلوا إلى عبد العزيز بن مروان وإلى أخيه عبد الملك على مصر ، فقد كان كعبة القاصدين ، وملجأ المعوزين والمحتاجين ، وللفرزدق يرثيه :

ظلوا على قبره يستغفرون له وقد يقولون تارات لنا القبر^(٤)

(١) أودى : هلك ، الإشاعة : الحد فى طلب الحاجة ، البدع : الأمور الجديدة الغريبة .

(٢) الألعى : الذكى الحديد القلب واللسان ، وقد وصفه بأنه يتظنّ الأمور فلا يحصى .

(٣) المرزأ : الذى تصيبه الرزايا فى ماله لكريمه ، والطبع : التيم الدنى .

(٤) العبر : الاعتبار .

يُقَبَّلُونَ تَرَابًا فَوْقَ أَعْظَمِهِ كَمَا يُقَبَّلُ فِي الْمَحْجُوجَةِ الْحَجَرُ^(١)
 لِلَّهِ أَرْضٌ أَجْنَتْهُ ضَرِيحَتُهَا وَكَيْفَ يُدْفَنُ فِي الْمَلْحُودَةِ الْقَمَرُ^(٢)
 إِنْ الْمَنَابِرَ لَا تَعْتَاضُ عَنْ مَلِكٍ إِلَيْهِ يَشْخَصُ فَوْقَ الْمِنْبَرِ الْبَصَرُ

ولما تحولت الخلافة إلى بني العباس كان من بين من قضوا عليهم يزيد
 ابن عمر بن هبيرة وإلى العراق لمروان بن محمد وقائد جيوشه هناك ، وكان من
 الشجعان الأجواد ، وفيه يقول أبو عطاء السندی ناديا متفجعا :

أَلَا إِنَّ عَيْنًا لَمْ تَجِدْ يَوْمَ وَاسِطٍ عَلَيْكَ بِجَارِي دَمْعَهَا لَجْمُودُ^(٣)
 عَشِيَّةً قَامَ النَّائِحَاتُ وَشَقَّتْ جِيوبٌ بِأَيْدِي مَاتِمٍ وَخُدُودُ^(٤)
 فَإِنْ تُمَسِّ مَهْجُورَ الْفَنَاءِ فَرِيحًا أَقَامَ بِهِ بَعْدَ الْوَفُودِ وَفُودُ^(٥)

وكان للعصر العباسي أجواده وأشرافه وقواده الذين أجزلوا العطاء للشعراء ،
 وأجزل الشعراء لهم في المدائح والمراثي . ومن أهم من رثوه وبكوه مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ
 الشيباني وإلى المنصور على اليمن وله سير وأقاصيص في المديح تشبه سير حاتم
 كريم الجاهلية . ولعل أحدا لم يبلغ في رثائه ما بلغه الحسين بن مطير الأسدي ،
 فله فيه مرثية رائعة يقول في تضاعيفها هذه الأبيات البديعة :

أَلِمَّا عَلَى مَعْنٍ وَقَوْلًا لِقَبْرِهِ سَقَّتْكَ الْغَوَادِي مَرَبَعًا ثُمَّ مَرَبَعًا^(٦)
 فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ أَنْتَ أَوَّلُ حُفْرَةٍ مِنْ الْأَرْضِ خُطَّتْ لِلْسَّاحَةِ مَضْجَعًا^(٧)

(١) المحجوجة : الكعبة .

(٢) الضريح : اللحد أو وسطه .

(٣) واسط : البلدة التي قضى فيها على ابن هبيرة ، وهي بين البصرة والكوفة ، واليمن الجهمد :

البخيلة بالدمع .

(٤) الجيوب : أعلى الثياب مما يلي الصدور .

(٥) الفناء : ردهة الدار ، والوفود : الجماعات ، والبيت كناية عن رياسته السابقة وكرمه .

(٦) الغوادي : السحاب ، والمريع : مطر الربيع .

(٧) خطت : حفرت ، والمضجع : موضع الاضطجاع .

ويا قبر مَعْنٍ كيف وارىت جوده وقد كان منه البرُّ والبحر مُترَعاً^(١)
 بلى قد وَسِعَتْ الجودَ والجودُ مَيَّتْ ولو كان حَيًّا ضِيقَتْ حتى تصدَعاً^(٢)
 فتى عِيشَ في معروفه بعد موته كما كان بعد السيل مجراه مَرْتَعاً^(٣)
 ومن وجوه العصر العباسى الذين أحدث موتهم جروحاً لا ترقأ في قلوب
 الشعراء منصور بن زياد، وفيه يقول التَّيَّمِيُّ من مَرثية طويلة :

عَمَّتْ فَوَاضِلُهُ فَعَمَّ هَلَاكُهُ فالناس فيه كلهم مأجورُ
 والناس ماتمهم عليه واحدٌ في كل دارٍ رنةٌ وزفيرُ

وكان ابنه محمد على مثاله في الجود والكرم ، وكان يلقب بفقى العسكر ،
 وللشعراء فيه مرثى بديعة ، ومن قول أشجع السلمى يرثيه :

أُنْعَى فتى الجودِ إلى الجود ما مثلُ من أُنْعَى بموجود^(٤)
 أُنْعَى فتى مَصَّ الثرى بعده بَقِيَّةُ الماء من العود^(٥)
 وانثلم الجُدُّ به ثَلَمَةٌ جانبها ليس بمسدود^(٦)
 اليوم تُحْشَى عَثَرَاتُ النَّدى وصولةُ البخل على الجود^(٧)

ومن شغلوا الشعراء أحياء وأمواتا يزيد بن مَزِيد، سيف الرشيد المسلول على
 أعدائه ، وقد تغنى الشعراء بمدح طويلاً ، فلما نزل به القدر هبوا ناعين باكين

(١) المترع : المملوء .

(٢) تصدع : تتصدع أى تتشقق .

(٣) المترع : المكان المعشب الذى ترعى فيه الماشية .

(٤) النعى : الإخبار بالموت .

(٥) يقول إن الأرض يبيت وجفت بعد موته فامتصت ما فى العود من بقية الماء . وهو كناية

عن إجداب الأرض بعد موته .

(٦) انثلم : انصدع .

(٧) العثرات : الزلات ، والصولة : الغلبة .

وفيه يقول التيمي :

أحَقُّ أَنَّهُ أَوْدَى يَزِيدُ تَبَيَّنَ أَيُّهَا النَّاعِي الْمُسَيِّدُ^(١)
أَتَدْرِي مِنْ نَعَيْتَ وَكَيْفَ فَاهَتْ بِهِ شَفَتَاكَ وَارَاكَ الصَّعِيدُ^(٢)
أَحَامِي الْمَلِكِ وَالْإِسْلَامِ أَوْدَى فَمَا لِلْأَرْضِ وَيْحَكَ لَا تَمِيدُ^(٣)
تَأْمَلْ هَلْ تَرَى الْإِسْلَامَ مَالَتْ دَعَائِمُهُ وَهَلْ شَابَ الْوَلِيدُ
أَمَّا وَاللَّهِ لَا تَنْفُكُ عَيْنِي عَلَيْهِ بِدَمْعِهَا أَبَدًا تَجُودُ

وكل بيت من المراثية يفيض بالدمع والأسى ، وهى من أجود المراثى فى الشعر العربى قديماً وحديثاً . ومن الشعراء الذين برزوا فى مراثى الولاة والقواد ممن فاضوا على الناس ببحور نوالهم وغمروا بها الأرامل واليتامى شاعر مشهور يدور اسمه على كل لسان ، وهو أبو تمام ، ومن قوله فى إحدى مراثيه وهى فى خالد بن يزيد بن مزيد :

أَشْيَانُ لَا ذَاكَ الْهَلَالُ بَطَالِعِ عَلَيْنَا وَلَا ذَاكَ الْغَمَامُ بِعَائِدِ^(٤)
وَلَا جَانِبُ الدُّنْيَا بِسَهْلٍ وَلَا الضُّحَى بَطَلَقِ وَلَا مَاءُ الْحَيَاةِ بِيَارِدِ^(٥)
فِيَا وَخْشَةَ الدُّنْيَا وَكَانَتْ أُنَيْسَةً وَوُحْدَةً مَنْ فِيهَا بِمَضْرَعٍ وَاحِدِ

وكان من الحوادث الدامية فى عصره أن قتل فى بعض حروب العباسيين بطل من أشهر أبطالهم ، وهو محمد بن حَمَيْد الطوسى الذى طالما دوخ الجيوش ، وكان آية فى الجود والكرم ، فنوه به الشعراء وأطنبوا فى الثناء ، فلما قتل فى ساحة الحرب أقاموا له المآتم ، ومن أروع ما قيل فيه مراثية لأبى تمام ، نقرأ

(١) المشيد : الرفع لصوته .

(٢) الصعيد : الثرى .

(٣) تميد : تتحرك وتهتر .

(٤) شيان : قبيلة الميت .

(٥) طلق : مشرق .

فيها هذه الأبيات :

تُوَفِّيْتُ الآمالُ بعدَ مُحَمَّدٍ وَأَصْبَحَ فِي شُغْلٍ عَنِ السَّفَرِ السَّفَرِ^(١)
 قَتَى كَمَا فَاضَتْ عَيُونُ قَبِيلَةٍ دَمَا خَشَكَتْ عَنْهُ الْأَحَادِيثُ وَالذِّكْرُ^(٢)
 فَتَى دَهْرُهُ شَطْرَانِ فَيَا يَنْوُبُهُ فَفِي بَأْسِهِ شَطْرٌ وَفِي جُودِهِ شَطْرٌ^(٣)
 فَتَى مَاتَ بَيْنَ الطَّعْنِ وَالضَّرْبِ مَيِّتَةً تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِذْ فَاتَهُ النَّصْرُ
 وَمَا مَاتَ حَتَّى مَاتَ مُضْرَبُ سَيْفِهِ مِنْ الضَّرْبِ وَاعْتَلَّتْ عَلَيْهِ الْقَنَا السُّمُرُ^(٤)
 تَرَدَّى ثِيَابُ الْمَوْتِ حُمْرًا فَمَا دَجَى لَهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهَى مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرُ^(٥)

ويكاد الإنسان يظن أنه لم يمت شريف ولا صاحب مأثرة إلا نعاه الشعراء وخلدوا ذكره، ودواوينهم تزخر بمراثيمهم لا في الشرق وبغداد فحسب ، بل في كل مكان حتى أقصى العالم الإسلامي في الغرب ، ونقصد الأندلس ، فإن شعراءها جكّلوا دواوينهم وأشعارهم بسواد الحزن على من سبقوهم إلى دار الخلود . ونستطيع أن ندخل في هذا الباب عندهم مراثيمهم في ملوك الطوائف وهم لم يكونوا ملوكاً حقيقيين ، إنما كانوا أمراء وأعياناً في بلدانهم ، واختارتهم هذه البلدان ليدبروا أمرها وقد اشتهر ابن باجة فيلسوف الأندلس وإمامها في الألحان بمراث بكى بها أبا بكر بن تيفلكويت صاحب سرقسطة ، وقد غنى بها في الألحان مبكية ، من ذلك قوله :

سلامٌ وإلمامٌ وروحٌ ورحمةٌ على الجسدِ الثأى الذى لا أزوره
 أحقاً أبا بكرٍ تقضى فما يرى تردُّ جماهيرَ الوفودِ سُتُورُهُ

-
- (١) السفر : المسافرون .
 (٢) يريد الشاعر بالقبائل التي تفيض عيونها دما القبائل التي هزمها في الحرب .
 (٣) البأس : الشجاعة .
 (٤) مضرب السيف : حده ، واعتلت : اعتذرت وتشاقلت ، والقنا : الرماح وتنمت بالسمة كما تنمت السيوف بالبياض .
 (٥) تردى : لبس ، ودجى الليل : أظلم ، والسندس : الحرير .

لئن أنست تلك القبور بقره لقد أوحشت أمصاره وقصوره

وقوله :

يا صدى بالنغر جاوره رمم بوركن من رمم^(١)
 صبحت الخيل غازية فأتارتك فلم ترم^(٢)
 قد طوى ذا الدهر بزته عنك فالبس بزة الكرم^(٣)

وإذا كان أبو تمام وغيره من الشعراء بكوا قواد العباسيين الذين استشهدوا في الحروب فإن الأندلسيين كانوا في حرب مستمرة مع الأسبان الشماليين ، وكم من سيد شريف وجواد كريم ضحى بنفسه في هذه الحرب وجاد بها راضيا يطلب ما عند الله من الثواب والأجر . وتغنى الأندلسيون بأبطالهم كما تغنى العباسيون بشجعانهم ، وتمثل في أذهاننا ثوار حروب الصليبيين في الشرق ، ومن ماتوا في تلك الحروب فداءً لأوطانهم ، ومن دوتخوهم مدافعين عن حوزة الإسلام . ولعل الشرق لم يعرف أميرين عظيمين في هذه المعارك كما عرف نور الدين في الشام وصلاح الدين في مصر ولما توفي أولهما نعاها الشعراء لحسن سيرته ولما قدم من بطولة سارت بها الركبان ، وفيه يقول العماد الأصفهاني :

يا ملكا أيامه لم تزل لفضله فاضلة فآخره
 غاضت بحار الجود مذغيبت أتملك الفائضة الزاخره
 ملكت دنياك وخلقتها وسرت حق تملك الآخرة

وتحمل العبء من بعده صلاح الدين الأيوبي صاحب مصر ومؤسس الدولة الأيوبية بها ، وأكبر من خضد شوكة الصليبيين ، بل لقد رمى بأمواجهم إلى

(١) الصدى : جسد الشخص بعد موته .

(٢) لم ترم : لم تبرح مكانك من رمت المكان أى أقمت به .

(٣) البزة : الثوب

البحر مستخلصا منهم بيت المقدس وغيره من بلدان الشام ، ولما نزل به قضاء ربه
رثاه العماد بقصيدة طويلة بلغت مائتين واثنين وثلاثين بيتا وفيها يقول :

ملكٌ عن الإسلام كان محامياً أبداً إذا ما أسلمته مُحامتهُ
قد أظلمت مذ غاب عنها دُوره لما خلت من بدره داراته^(١)
لو كان في عصر النبي لأُنزلت في ذكره من ذكره آياته
فعلى صلاح الدين يوسف دائماً رضوانُ ربِّ العرش بل صلواته

وعلى هذه الشاكلة كان شعراؤنا لا يتركون شريفا ولا عظيما يموت وتذهب
ذكره ، بل سجلوا دائما مناقب كل سيد نبيل ، وكل بطل جريء . وما دواوين
شعرائنا إلا سجلات حافلة بمن لمعوا في عصورهم ، ثم اختفوا وراء ظلمات الموت .
ونمضي بعد صلاح الدين في ديارنا المصرية ، ويدور بنا الزمن دورات ،
حتى نصل إلى العصر الحديث بين أنات الشعراء وصباحهم على من يتوفون من
سلاطين الممالك وعلية القوم ورؤسائهم وأجوادهم . وما نزال حتى نلتقي بحافظ
وشوقي فنجد لمرأى السراة والأعيان مكانا بارزا في ديوانيهما ، ولعل حافظاً يتقدم
شوقي في هذا الجانب ، إذ دفعته رقة خاله للاتصال بطائفة من العلية الممتازين
في عصره ، وأغدقوا عليه من برّهم وفضلهم فكان إذا نزل الموت بساحة واحد منهم
ذهب ينشج عليه وينوح بعاطفة حزينة صادقة ، من ذلك قوله في سليمان أباطة :

أودى سليمان فأودى بعده حُسنُ الوفاء وبهجةُ العلياء
لا تحمله على الرقاب فقد كفى ما مُجِّلت من منّة وعطاء
وذروا على نهر المدامع نعشه يسرى به للرؤضة ، الفيحاء
تالله لو علمت به أعواده مذ لامسته لأورقت الرأى
خلق كضوء البدر أو كالروض أو كالزهر أو كالنمر أو كالماء

ولشوقي هو الآخر مراث في سراة عصره ، وكانت له مقدرة بديعة في لوين
الرثاء بالحكم وسنعرض لذلك في حديثنا عن العزاء .

(١) الدارات : جمع دارة وهي الهالة الدائرة حول القمر .

تأيين العلماء والأدباء

طبيعى أن يكون للعلماء مكانهم فى التأيين والرئاء ، إذ كانوا يتصلون بحياة الشعراء اتصالا مباشراً إما من الوجهة الثقافية العامة ، وإما من الوجهة الدينية ، وقلما مات صاحب مذهب فى الدين أو صاحب أثر بارز فى تأليف الشريعة إلا نعاه الشعراء وتحذثوا عن فضله وواسع علمه وقيمة ما ترك من ورائه . ومن بكاه الشعراء الأوزاعى فقيه الشام ، وإمام أهله لعصر بنى أمية ، وفيه يقول بعض الشاميين :

جاد الحيا^(١) بالشام كلَّ عَشِيَّةٍ قبرا تضمَّن لَحْدُهُ الأوزاعى
قَبْرُهُ تضمَّن فيه طود شريعةٍ سقيا له من عالم نَفَاعِ
عرضتْ له الدنيا فأعرض مقلعاً عنها بزهدٍ أيما إقلاعِ

وغير الأوزاعى من الفقهاء الأول كان يبكيه الشعراء ، ويؤبنونه معبرين عن إعجابهم به وبسلوكه العلمى والخلقى ، ولبعضهم فى الإمام مالك وكتابه «الموطأ» :

إمامٌ موطَّاه الذى طُبِّقَتْ به أقاليم فى الدنيا فساحٌ وآفاقُ
له سَنَدٌ عالٍ صحيحٌ وهَيْبَةٌ فلاكل منه حين يرويه إطراقُ

وهو يشير إلى ما فى كتاب الموطأ من أحاديث صحيحة عالية السند ، موثوق بها ، إذ كان مالك ديناً ورعاً ، متحرراً فيما يرويه من أحاديث ، فلم يَرَوْهُ إلا الصحيح . ويقول آخر فى الشافعى (وهو أبو عبد الله محمد بن إدريس) :

(١) الحيا : الغيث .

ألم تر آثار ابن إدريس بعده دلائلها في المشكلات لواع
إذا المفطعات المشكلات تشابهت سما منه نور في دُجَاهن لاعم
تسرّبل بالتقوى وليدا وناشأ وخص بلب الكهل مذ هو يافع

ويطول بنا القول لو ذهبنا نحصى ما قيل في الفقهاء وعلماء الشريعة الإسلامية على مر العصور ، فقد كانوا أساتذة المسلمين الروحيين ، وكانوا يتلقون عنهم من الهدى في دينهم ما يضيء لهم جوانب حياتهم ، فلا غرو أن وقفوا عليهم كثيرا من مراثيهم .

ولعل علماء اللغة هم أكثر العلماء اتصالا بالشعر والشعراء ، فقد كانوا يؤدّبونهم ، وعن طريقهم حذقوا فنهم وقد ذهبوا ينعونهم في شعرهم ، ونجد هذا النعي في كل مكان . ومن أكثر الشعراء نعيه منهم عبد الملك بن سراج نحبي علم اللسان بجزيرة الأندلس ، فقد عقد ابن بسام في كتابه الذخيرة فصلا طويلا لمراثيه ، ومما قيل فيه :

كم مُصْعَبٍ في النحو راضٍ جماعه حتى عَدَا والصعبُ منه ذلولُ
أدنى إلى الأفهام نائى علمها حتى تساوى عالمٌ وجهول
طَبٌّ بأدواء الكلام ملقنٌ سَهْمٌ على عَوْراته مدلولٌ^(١)

ومن مراثي اللغويين والنحويين البديعة مراثية الشرف الحصنى لابن مالك صاحب « الألفية » المشهورة ، وفيها يقول :

يا شتاتَ الأسماء والأفعال بعد موتِ ابن مالكِ الفضالِ
وانحرافَ الحروف من بعد ضَبْطِ منه في الانفصال والاتصالِ
مصدراً كان للعلوم بأذن الله من غير شبهةٍ ومُحالِ
عَدِمَ النحو والتعطف والتو كيدُ مستبدلا من الأبدالِ

أدغموه في التُّرْب من غير مثلٍ سالماً من تغيُّر الانتقال.

وواضح أن الحصني تصنع لمصطلحات النحو، فحشدها في مَرثيته، حتى يلائم بين الشعر وصنعة ابن مالك وقد وفق في هذا التصنع، فلم تسقط الأبيات ولا الأفكار منه، واستمر طويلاً على هذا النحو الطريف.

ومن بين العلماء الذين أبشَّهم الشعراء العلماء بالفلسفة، وقد وجدوا فيهم مادة لا تنفذ من أحوال الدنيا، وخاصة أن أكثرهم كان يتعاطى الطب، ويداوى الناس من الأمراض، ولم يستطع أن يداوى نفسه ولا أن يمنع عنها نزول الموت، فذكروا فضلهم وعلمهم، ثم وقفوا عند صنعهم وأنها لم تغنهم من أمرهم شيئاً فمن ذلك قول يحيى المنجم في رثاء ثابت بن قرّة:

أَمِينَا الْعُلُومَ الْفَلَسَفِيَّاتِ كُلَّهَا خَبَا نَوْرُهَا إِذْ قِيلَ قَدْ مَاتَ ثَابِتُ
وَأَصْبَحَ أَهْلُهَا حَيَارَى لِفَقْدِهِ وَزَالَ بِهِ رُكْنٌ مِنَ الْعِلْمِ ثَابِتُ
وَلَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ لَمْ يُغْنِ طِبُّهُ وَلَا نَاطِقٌ مِمَّا حَوَاهُ وَصَامَتُ^(١)

ويقول آخر في ابن سينا:

رَأَيْتُ ابْنَ سَيْنَا يَدَاوِي الرِّجَالَ وَبِالْحَبْسِ مَاتَ أَخْسَ الْمَاتِ
فَلَمْ يَشْفِ مَا نَالَهُ بِالشِّفَا وَلَمْ يَنْجُ مِنْ مَوْتِهِ بِالنِّجَا

والشاعر يريد بالحبس الحبس بطنه من قرحة المعدة التي مات بها، والشفاء والنجاة كتابان معروفان لابن سينا.

وإذا كان أسلافنا قدروا معاصريهم من العلماء في مختلف الفروع والفنون فإن شعراءنا أيضاً وفوا علماءنا حقهم من التكريم والتبجيل بعد وفاتهم، فقلما توفي عالم نابه إلا أشادوا به، وتحدثوا عن مناقبه، وما أسدى لوطنه وأبنائه، وما قدم لأمته من خدمات، واستمع إلى شوقي يقول في أبي هسيّف أحد رجال القانون:

(١) المال الناطق: الدواب، والصامت: العتار والضياع والذهب والفضة.

اجعلْ رثاءك للرجال جَزَاءً وابعثه للوطن الحزين عزاء
 إن الديار تريق ماء شُثونها كالأمهات وتندبُ الأبناء^(١)
 تُكَلُّ الرجال من البنين وإنما تُكَلُّ المالك قَدُّها العلماء
 يَجْزَعَنَّ للعالم الكبير إذا هَوَى جَزَعَ الكتائب قد فَقَدَنَّ لواء^(٢)
 عِلْمُ الشريعة أدركته شريعةٌ للموت ينظم حُكْمُها الأحياء
 عانى قضاء الأرض عِلْمَ محصِّلٍ واليوم عاجل للسماء قضاء

فهو يشيعه لا يحزنه وحده ، بل أيضاً يحزن وطنه عليه ، ومصيبته فيه ،
 ونخساره أصدقائه ومواطنيه . ومن بين من رثاهم عثمان غالب ، وكان عالماً بالنبات
 وطبياً ، فرثى العلمين فيه ، وهو يستهل مراثيه بقوله :

ضجَّتْ لمصرَعٍ غالبٍ في الأرض مملكة النباتِ
 في مأتمٍ تلقى الطليع مئةُ فيه بين النائماتِ
 والزهرُ في أكمامه يبكي بدمع الغاديات^(٣)
 أما مصاب الطبِّ فيه فـ فَسَلْ به مَلَأُ الأُساءة^(٤)

وكان شوقي يعرف كيف يستخرج في مراثيه المعاني من الموضوع الذي
 ينظم فيه ، وقد أطلال في بكاء الطبيعة وأزهارها على غالب ، ولا ' قطفنا هذه
 الأبيات الأربعة من أبيات كثيرة . وله في رثاء طبيب :

جَمَعَتْ جراحُ المعوزين وأعْضَلَتْ أدواؤهم . وتغيَّب الشافونا^(٥)

(١) ماء الشون : الدموع .

(٢) العلم : المشهور ، وأصله الجبل .

(٣) الغاديات : السحب .

(٤) المَلَأُ : شيوخ النادي ، والأساءة : الأطباء .

(٥) أعْضَلَتْ : استعصت .

مات الجواد بطبّه وبأجره ولربما بذل الدواء مُعِيناً
وتَجَسُّ راحته العليل وتارة تكسو الفقير وتطمع المسكين

وللمعلمين حظهم في مراثينا الحديثة ، وخاصة عند شعراء لبنان والمهجر ،
ولنسب عريضة مرثية بدعية يؤبّن فيها عبد الله البستاني مثنيا على أخلاقه وصفاته
وكدّحه في سبيل رقيّ بلاده ونهضتها العلمية ، وما جاء فيها :

إنه عالمٌ — تقول — قضى الأيّامَ ما بين طُرُسِهِ ودَوَانِهِ
كان يَقْرِي الجِيعَ عِلْماً وفَهْماً وسواه يَقْرِيهِمْ من فُتَاتِهِ
هَذَّبَ الناشئين في أُمّةٍ ما عرفتُ حقَّ قدرِهِ في حَيَاتِهِ
فلتقدّس ذكره في القلب فالذكرى بقلب الحزين من صلواتِهِ

ولعل مصر والبلاد العربية لم تبتك عالماً في عصرنا كما بكت الشيخ محمد
عبيده مفتي الديار المصرية إذ كان مصلحاً كبيراً ، وكانت له معارك مع رجال
الدين المتزمتين ، كما كانت له معارك وطنية وسياسية ، وكان في كل ما يتجه
إليه يفكر في بلاده وفي دينه وفي الأزهر والنهوض به . وتصادف أن رعى حافظ
إبراهيم وأن كان سبياً في جَذْب الأنظار إليه ، فلما توفي ردّ إليه صنيعه مرآة
ملتاعة ، وله في إحدى مراثيه :

سلامٌ على الإسلام بعد محمدٍ سلامٌ على أيامه النَّصْرَاتِ
على الدين والدنيا ، على العلم والحجّي على البرِّ والتقوى ، على الحسَنَاتِ

واستمر يتحدث عن إصلاحاته ، وذبحه عن الإسلام ورده على مطاعن
أعدائه ، وما سطر في التفسير من آراء وأحكام ، حتى قال :

بكى الشرقُ فارتجّت له الأرضُ رَجَّةً وضائقُ عيون الكونِ بالعبراتِ
ففي الهندِ محزونٌ وفي الصينِ جازعٌ وفي مِصرَ بالكِ دائمُ الحسراتِ

وفي الشام مفجوعٌ وفي الفُرس نادبٌ وفي تونسٍ ما شئتَ من زَفَرَاتِ
بكي عالمُ الإسلامِ عالمَ عصره سِرَاجُ الدياجي هادمَ الشُّبُهَاتِ

وهي مريئة مليئة باللوعة الشديدة ، إذ كان يبكي فيه ناصره ، كما كان يبكي
فيه أهدافه الإصلاحية الكثيرة للهوض بوطنه .

وإذا كان العلماء قد استأثروا بكثير من مرثي شعرائنا في القديم والحديث
فإن الأدباء استأثروا من ذلك بالخط الأوفر ، سواء أكانوا كتابا أم كانوا شعراء .
وللشريف الرضي مرثيتان مشهورتان في أكبر كاتبين في عصره ، وهما أبو إسحاق
الصبائي شيخ الكتاب في بغداد والصاحب بن عباد وزير البُويهيّين وخير كتابهم ،
ومن قول الشريف في أولهما :

أعلمتَ مَنْ حمّلاوا على الأعْوَادِ أرايتَ كيفَ خبّأ ضيابه النّادى ؟
جَبَلٌ هوى لو خرَّ في البحر اغتدى من وقفه متتابع الإزبادِ
ما كنت أعلم قبل دفنك في التّرى أن الثرى يعملو على الأطوادِ

ويقول في الصاحب من مرثية طويلة :

أ كذا المنون يقطر^(١) الأبطالاً أ كذا الزمان يُضَعِّضُ الأَجْبالاً
جَبَلٌ تَسَنَّتِ البلادُ هضابَهُ حتى إذا ملأ الأقالِمَ زالا
يا طالبا من ذا الزمانِ شبيهه هيهات كلفتَ الزمان محالا

وكثير هم الكتاب الذين دبح الشعراء فيهم مرثي بديعة ، ففي الشرق والغرب
وفي كل مكان نجد الشعراء يبكونهم . ومن طريف ما جاء عن الأندلسيين من
ذلك رثاء ابن بُرْد الأصغر لأبي عامر بن شُهَيْد صاحب رسالة التوايع والزوايع ،
وهي رحلة فيما وراء الطبيعة لشاعر جاس خلال وادى الجحيم ، والتقى فيه بشياطين
الشعراء ، وحاورهم وحدّثهم كما حدثوه . ومن قول ابن بُرْد فيه :

لَايَةً خِصْلَةً تَبْكِيكَ عَيْنِي وَمَالِي بِالْحَسَابِ لَهَا يَدَانِ
أَلِئَلْهُمِ الْمَنُوطَةِ بِالثَّرِيَّا أَمِ الشِّمِّ الْمَهْدَبَةِ الْحَسَانِ
أَمِ الْقَلَمِ الَّذِي قَدْ كَانَ يَجْنِي مِنْ الْقِرْطَاسِ نُوَارَ الْبَيَانِ

ولكتاب العرب المحدثين نصيبهم من هذه المراثي ، وخاصة من اشتغلوا منهم بالصحافة ، وساهموا في حياتنا الأدبية ، ويكفي أن نرجع إلى ديواني حافظ وشوقي ، فس نجد عندهما مراثي لكثيرين من الكتاب المعاصرين أمثال جورجى زيدان والشيخ على يوسف صاحب المؤيد ويعقوب صروف أحد صاحبي مجلة المقتطف وصحيفة المقطم ، ومحمد المويلحى الذى كان يحرر مع أبيه إبراهيم صحيفة مصباح الشرق ، والذى ألف حديث عيسى بن هشام وصور فيه حياتنا المصرية فى أواخر القرن الماضى ناقدا ما اقتبسناه من أوروبا من عادات وأخلاق ، ومجريا ذلك فى شكل قصصى يعتمد على الحوار ورسم الشخصيات ، وإلى هذا الكتاب يشير حافظ فى تأبينه له إذ يقول :

لو شهدت (محمداً) وهو يُملى آىَ (عيسى) ومعجزات الكتاب (١)
وقفت حوله صفوفُ المعاني وصفوفُ الألفاظ من كل بابٍ
لعلتمُ بأنِ عهدَ ابنِ بحرٍ عاود الشرقَ بعد طول احتجابٍ (٢)

ويقول شوقي :

فى يد النشء من بيان المويلحى مثلٌ ينفع الشباب اتباعُهُ
صورُهُ من حقيقةٍ وخيالٍ هى إحسانُ فكرِهِ وابتداعُهُ

وإذا تركنا الكتاب إلى الشعراء وجدناهم يحزنون على زملائهم الذين يسبقونهم إلى الموت حزنا يفضى بهم إلى التنفيس عن لوعتهم بالأبيات والمقطوعات أحيانا

(١) ورى حافظ فى كلمتى محمد وعيسى ، وهو يقصد محمد المويلحى وكتابه عيسى بن هشام .

(٢) ابن بحر هو عمرو بن بحر الجاحظ أشهر كتاب العصر العباسى .

وبالقصائد والمرثى المطولة أحياناً أخرى . وهذا التعاطف والتراحم بينهم من قديم ، وحتى بين من كانوا يتهاجون فإن الفرزدق كان يتعارك مع جرير ، ولهما نقائض مشهورة ، ولما ألمّ بالفرزدق طائف المنون بكاه جرير في أشعار مختلفة ، منها قوله :

فُجِعْنَا بِحَمَالِ الدِّيَاتِ ابْنِ غَالِبٍ وَحَامِي تَمِيمٍ عَرَضِيهَا وَالْمُرَاجِمِ^(١)
بَكَيْنِكَ حَدَثَانِ الْفِرَاقِ وَإِنَّمَا بَكَيْنُكَ شَجْوًا لِلْأُمُورِ الْعَظَامِ

ومن يرجع إلى كتب الأدب والتراجم في العصر العباسي يجد الشعراء مكبّين على تأيين زملائهم الراحلين ، وهذا طبيعي بحكم الزمالة وما نشأ بينهم من صفة وصداقة ، وهي صداقة روحية ، وكثيراً ما تكون صداقة تلمذة ، فتجتمع الأبوة الفنية مع الصداقة الروحية ، أو تكون الأخوة الأدبية التي تربط الشعارين برباط أقوى من رباط الدم . ومن بكاهم إخوانهم وأعولوا في بكائهم أبو تمام ، وفيه يقول الحسن بن وهب :

فُجِعَ الْقَرِيبُ بِخَاتَمِ الشُّعْرَاءِ وَغَدِيرِ رَوْضَتِهِ حَبِيبِ الطَّائِي
مَاتَا مَعًا فَتَهْجَاوَرَا فِي حُفْرَةٍ وَكَذَلِكَ كَانَا قَبْلُ فِي الْأَحْيَاءِ

ويقول علي بن الجهم :

غَاضَتْ بَدَائِعَ فِطْنَةِ الْأَوْهَامِ وَعَدَتْ عَلَيْهَا نَكْبَةَ الْأَيَّامِ
وَعَدَا الْقَرِيبُ ضَيْلَ شَخْصٍ بِأَكْيَا يَشْكُو رَزِيَّتَهُ إِلَى الْأَقْلَامِ
وَتَأَوَّهَتْ غُرُرُ الْقَوَافِي بَعْدَهُ وَرَمَى الزَّمَانُ صَحِيحَهَا بِسَقَامِ
أَوْدَى مُتَقَبِّهَا وَرَائِضُ صَعْبِهَا وَغَدِيرُ رَوْضَتِهَا أَبُو تَمَّامِ

ولما قتل المتنبي أقام الشعراء عليه المآتم في كل مكان ، ومن رثاه فأحسن في

(١) حمال الديات : الذي يحمل عن الناس ما يطلب منهم من الديات والمغارم ، والمراجم . المناضل والمدافع .

رثائه على إيجازه أبو القاسم مظفر بن علي الطَّبَّسِي ، إذ يقول :

لَا رَعَى اللَّهُ سِرْبَ هَذَا الزَّمَانِ إِذْ دَهَانَا فِي مِثْلِ ذَاكَ اللِّسَانِ
مَارَأَى النَّاسُ ثَانِيَّ الْمُتَنَبِّي أَيْ ثَانِيَّ يُرَى لِبَكْرِ الزَّمَانِ
كَانَ مِنْ نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ فِي جَيْشٍ وَفِي كِبَرِيَاءِ ذِي سُلْطَانِ
هُوَ فِي شَعْرِهِ نَبِيٌّ وَلَكِنْ ظَهَرَتْ مُعْجَزَاتُهُ فِي الْمَعَانِي

وكان أبو العلاء كثير التلاميذ، فلما مات أنشد على قبره أربعة وثمانون شاعراً مرأى ييكونه فيها ، ويبكون الشعر والعلم والثقافة الواسعة ، وفيه يقول على بن الهمام من مرثية طويلة :

إِنْ كُنْتَ لَمْ تَرْقِ الدَّمَاءَ زَهَادَةً فَلَقَدْ أَرَقْتَ الْيَوْمَ مِنْ جَفْنِي دِمَا
سَيَّرْتَ ذِكْرًا فِي الْبِلَادِ كَأَنَّهُ مِسْكٌ مَسَامَعَهَا يَضْمَخُ أَوْفَمَا
وَتَرَى الْحَبِيجَ إِذَا مَا أَرَادُوا لَيْلَةً ذَكَرَكَ أَخْرَجَ فِدِيَةً مِنْ أَحْرَمَا

وهو يشير في البيت الأول إلى تحريمه على نفسه الحيوان ، وأنه لم يرق دمه ليأكله ، ويقول في البيت الأخير إن ذكره طيب ، والطيب لا يحل للمحرم الحاج ، فإذا ذكره وجب عليه أن يؤدي الفدية .

ولإذا كان شعراؤنا في العصور الماضية قد أدى بعضهم لبعض حقوقهم من التأبين والبقاء فإنهم في عصرنا الحديث يستبقون إلى هذا الواجب الأدبي استباقا ، فكل منهم يظهر وفاءه بزميله وأن كوارثته فيه فوق أن تُحَدِّدَ أو توصف ، بل إنها كارثة الشعر والفن ، وأيضا فإنها كارثة الوطن الذي أُصِيبَ به وخرَجَ يشيعه كسير القلب والفؤاد . ولعل أهم شاعر لبست له مصر ثياب السواد في مفتتح قرننا هو البارودي أبو شعرا الحديث ، الذي نفخ في روحه وبعثه من موته ورقاده ، وفيه يقول حافظ إبراهيم نادبا مشيدا بأمجاده الفنية :

لَبَّيْكَ يَا شَاعِرًا ضَنَّ الزَّمَانُ بِهِ عَلَى النَّهْيِ وَالْقَوَافِي وَالْأَنَاشِيدِ^(١)

تَجْرَى السَّلاَسَةُ فِي أَثْنَاءِ مَنْطِقِهِ تَحْتَ الْفَصَاحَةِ جَرَى الْمَاءُ فِي الْعُودِ
لَوْ حَنْطُوكَ بِشَعْرِ أَنْتَ قَائِلُهُ غَنِيَتَ عَنْ نَفَّاحَاتِ الْمِسْكِ وَالْعُودِ

ثم يتحدث عن قصائده في مديح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنها خير زاد له يوم الحساب ، ثم يعرض لمناصبه في الثورة العرابية وقبلها ، كما يعرض لحروبه في جيوش الترك ، ويقول :

لَوْ أَنْصَفُوا أَوْدَعُوهُ جَوْفَ لَوْلَاةٍ مِنْ كَنْزِ حَكْمَتِهِ لَا جَوْفَ أُخْدُودِ^(١)
وَكَفَّنُوهُ بِدَرَجٍ مِنْ صَحَائِفِهِ أَوْ وَاضِحٍ مِنْ قِمِصِ الصَّبِيحِ مَقْدُودِ^(٢)

وما يزال حافظ يشيد بشعره وفرائده الحسان التي بلغت من الجمال الفنى أروع مظاهره . وكما بكى حافظ البارودى وأبنته بكى إسماعيل صبرى هو الآخر وأبنته تأبيناً طريفاً ، وفيه يقول :

أَوَّلَ يَوْمٍ لَعُدَّ الرَّبِيعُ تَجِفُّ الرِّيَاضُ وَيَذْوِي الزَّهْرُ^(٣)
وَيَذْبُلُ زَهْرُ الْقَرِيضِ الثَّرِيِّ وَيُقْفِرُ رَوْضُ الْقَوَافِي الْفَرَزِ
لِيَهْدَأَ عَمَانُ فُغْوَاصِهِ أُصِيبَ وَأَمْسَى رَهِينَ الْحَقْرِ^(٤)
يَقُولُ فَيُرْخِصُ دُرَّ النَّحُورِ وَيُغْلِي بُجَانِ بَنَاتِ الْفِكَرِ^(٥)

واستطرد يتحدث عن خصائصه في شعره ، وأنه كان يعنى بتأليف المقطوعات القصيرة لكنها على قِصَرِها لها جمالها وحسنها ، ولها إعجازها وإبداعها ، بما أدّت من نفثات الهوى وتعاويد الحب والجوى . وأبنته شوقي بمرثية طويلة ،

(١) الأخدود : الحفرة في الأرض ، والمراد بها القبر .

(٢) الدرج : ما يكتب فيه ، والمقدود : المشقوق .

(٣) يشير إلى أن إسماعيل صبرى توفى مع أول الربيع .

(٤) عمان : في الجنوب الشرقى للجزيرة العربية على خليج العرب ، وتشتهر باللؤلؤ المستخرج

من مياهها .

(٥) البجان : اللؤلؤ .

ذكر فيها تلمذته له ورعايته الأدبية ، إذ يقول في وصف قصيدته :

هذا هو الريحان إلا أنه نَفحاتُ تلك الروضة المثناف^(١)
والدرُّ إلا أن مهْدَ يقيمِهِ بالأمس لُجَّةٌ بَحْرِكُ القَذافِ
أيامَ أَمْرَحُ في غبارك ناشئاً نَهَجَ المِهَارِ على غبارِ «خِصاف»^(٢)
أتعلمُ الغايات كيف تُرَامُ في مضمارِ فضلٍ أو مجالِ قوافِ

وواضح أن شوقي، يذكر له فضله عليه في الشعر وفي التخلق بالأخلاق الكريمة . ولما سبقه حافظ إلى الدار الباقية بكاه بمرثية رائعة افتتحها بقوله :

قد كنتُ أوثر أن تقولَ رثائي يا منصفَ الموقى من الأحياء

وما زال يتحدث عن حياته ووفائه لأصدقائه ، وشعره وما خسرت الفصحى بموته ، وكيف نعته البلاد العربية وبكته ، حتى قال :

يا حافظ الفصحى وحارسَ مجديها وإمامٌ من نَجَلَتْ من البلغاء^(٣)
جَدَّدَتْ أسلوبَ (الوليد) ولفظه وأُنيتَ للدنيا بسحر (الطائي)^(٤)

ولم يلبث نجم شوقي أن أفل بعد حافظ بقليل فنعته البلاد الناطقة بالضياء كلها ، ولم تبق بلدة إلا نشجت عليه وبكت ، ولم يبق شاعر من شعرائها إلا استوحى موته مرثية باكية يشيعه بها إلى مثواه الأخير . ومن رائع ما رُئي به قصيدة بشارة الخوري ، وفيها يقول :

قِفْ في رُبِّي الخلدِ واهتِفْ باسمِ شاعرهِ فسيذرة المُنْتَهَى أدنى منابرهِ

(١) الروضة المثناف : الروضة التي قلما يمر بها أحد .

(٢) المهار : جمع مهرة ، وخصاف : فرس مشهور عند العرب ، والتشبيه واضح .

(٣) نجلت : ولدت .

(٤) الوليد : البحرى ، والطائي : أبو تمام .

وَأَمْسَحْ جَبِينِكَ بِالرُّكْنِ الَّذِي انْبَلَجَتْ أَشْعَةُ الْوَحْيِ شِعْراً مِنْ مَنَائِرِهِ
إِلَهَةُ الشَّعْرِ قَامَتْ عَنْ مِيَامِنِهِ وَرَبَّةُ النَّثْرِ قَامَتْ عَنْ مِيَايَسِرِهِ
وَالْحَوْرُ قَصَّتْ شَذُوراً مِنْ غَدَائِرِهَا وَأَرْسَلَتْهَا بِدِيلَا مِنْ سَتَائِرِهِ
وَمِنَ الْأَدْبَاءِ الَّذِينَ نَعَاهُمُ الشُّعْرَاءُ فِي عَصْرِنَا جُيَّهْرَانُ شَاعِرُ الْمَهْجَرِ وَكَاتِبُ الْفَدَا،
وَزَمَلَاثُهُ مِنَ الشُّعْرَاءِ فِي دِيَارِ أَمْرِيكََا مَرَاثُ فِيهِ تَعْبَرُ عَمَّا عَصَفَ بِقُلُوبِهِمْ مِنْ حَزْنِهِمْ
عَلَى زَمِيلِهِمْ حَزْناً عَمِيقاً ، وَمِنْ قَوْلِ نَسِيبِ عَرِيضَةِ فِيهِ :

أَيُّهَا الشَّاعِرُ الْأَلْهِيُّ طُوبَى لَكَ فِي الْأَوْجِ حَيْثُ رَوَّحَكَ تَرْتَعُ
أَسْكَنْتَ الْبَيْنَ شَدْوَايَكَ لَكِنْ لَمْ يَزَلْ لَحْنُهُ يَرِنُ وَيُسْمَعُ
وَأَنَا شَيْدُكَ الْحَسَانُ سَبَقَ خَيْرَ إِرْثٍ لِأُمَّةٍ تَنْفَجَّعُ
أَرْزُ لَبْنَانَ اطَّأطِءِ الْهَامَ وَاخْشَعْ سَكَتَ الشَّاعِرِ الَّذِي كُنْتَ تَسْمَعُ
سَيَّاسِمِيكَ فِي جَوَارِكَ قَبْرُهُ هُوَ فِي قَلْبِهِ أَعَزُّ وَأَرْفَعُ

وعلى هذه الشاكلة كلما سقطت القيثارة من يد شاعر في عصرنا تولاه إخوانه
وزملاؤه بالبكاء عليه ، ونثروا على قبره أزهار شعرهم ، وبثوه نفثاتهم الشجية .

٥

حفلات التباين الحديثة

مر بنا في تضاعيف حديثنا ما يدل على أن أسلافنا عرفوا تباين الجماعات من
الشُعراء لفقيد راحل ، إذ كانت تقف بقبر بعض الراحلين طوائف من الشعراء ،
فترثيه ، وتؤبونه ، وتعرض لسجاياه ومناقبه ، وتتحدث عن علمه الغزير إن كان عالماً ،
وأدبه الخصب إن كان أدبياً ، كاتباً أو شاعراً . ومعنى ذلك أنهم عرفوا التباين
الجماعي .

وهكذا شأن عصرنا ، فقد يقف الشعراء على قبور الراحلين ، وقد يعودون بعد وفاتهم ، فيحتفلون بذكراهم ، إما في تمام الأربعين يوما من وداعهم ونزولهم في مثواهم الأخير ، أو بعد ذلك ، حسب الظروف والأحوال . وما تزال الصحف تطلع علينا من حين إلى حين بهذه الحفلات التي يتناول فيها الخطباء والشعراء سير الراحلين .

وتتنوع هذه الحفلات ، فهي تارة تعرض لمصلح اجتماعي كبير أو صحفي خطير أو زعيم وطني عظيم ، أو شاعر عَنَت له الوجوه ، أو كاتب انحنت له الرؤوس ، وفي دواوين شعرائنا قصائد كثيرة نظموها في هذه الحفلات . وتستطيع أن ترى صورة واضحة منها في كتاب « ذكرى الشاعرين : حافظ وشوقي » لأحمد عبيد ، فقد جمع فيه أكثر وأجمل ما قيل في تأبينهما نثراً وشعراً ، وهو كتاب نفيس ، بما صور فيه كتابنا وشعراؤنا عمل الشاعرين جميعا . ومن حين إلى آخر يظهر مثل هذا الكتاب . ومن الظواهر الطريفة أن المرأة اشتركت في حياتنا الحديثة وأنها تقدمت تحمل اللواء في الشعر وفي النثر وفي الحياة العامة .

وكان لمي زيادة دور كبير في حياتنا الأدبية ، وكان لها منتدى يجتمع إليه الأدباء والشعراء ، كما كان لها رسائل أدبية لطيفة . فلما توفيت بكأها البرق ونعتها الصحف ، وأقيم لها حفل تأبين تمجيداً لها ولأيادها وتحية لروحها وما وهبت من نفسها . وطُبعت الكلمات والقصائد التي أُلقيت في هذا الحفل ، وما جاء فيها على لسان العقاد :

حَيَّ (مَيًّا) إِنْ مِنْ شَيْعِ مَيَا منصفاً حَيَّ اللسان العربيَّا
وجزى حَوَّاءَ حَقًّا سَرْمَدِيَا وجزى (مَيًّا) جزاءً أَرِيحِيَّا
للذي أَسَدَتْ إِلَى أُمِّ الْكِتَابِ

وجزع في عصرنا الكتاب والشعراء لموت السيدة هدى شعراوى زعيمة النهضة النسائية في مصر ، التي أسست من مالها دوراً ومدارس لمن كبا بهم الحظ العاثر ، كما أخذت بأيدي كثير من الفتيات والفتيان ، ممن رأت لديهم مواهب عالية ،

فأرسلتهم إلى حواضر الغرب ليُكملوا علمهم وفهم . وهذه الأيادي الكثيرة لم تذهب عبثاً ، فقد تجمعت منها باقة عطرة من الذكري ، نُثرت على روحها في حفل تأبين كبير ، تحدث فيه جمهور من الكتاب والشعراء ، أحصوا أعمالها الباهرة ، وسجلوا جهودها الرائعة ، وتحليل مطران مرثية بديعة صور فيها ما قدمت لوطنها من أمجاد ومفاخر ، ومن قوله :

هُدَى ! بلغتِ بما أبليتِ منزلةً	عَصَاء خالدة الذكرى على الحَقَبِ
فقد تفرَّدتِ بالأفعال باهرةً	كما تفردتِ بالأقوال والخُطَبِ
مؤسَّساتك لو عُدَّت ولو وصفتُ	لما انتهى مُعْجَبٌ إلا إلى عَجَبِ
آياتُ عصرٍ جديدٍ للرُّقَى يَرَى	مستقبلَ الشعب فيها كلُّ مرتقب
بها تُعدُّ البنات الصالحات له	والأمهات لجيل عامل دَرِبِ

وليست المرأة وحدها التي تشدُّ عي نظرها في هذه الحفلات الحديثة للتأبين ، فإننا نجد فيها تكريماً للنابعين من الفنانين ، لا الكتاب والشعراء فقط ، بل أيضاً النحاتين والرسامين ، وأصحاب الموسيقى والغناء ، ولشوق مرثية طويلة ألقيت في حفلة تذكارية تمجيداً للشيخ سلامة حجازي الذي تسنم قمة المجد في فني الغناء والتمثيل أوائل هذا القرن ، وفيها يقول :

يا ثَرَى النيلِ في نواحيك طَيْرٌ	كان دُنْيَاً وكان قَرَحَةً جِيلِ
لم يزل ينزلُ الخُمائلَ حتى	حَلَّ في ربوةٍ على سلسيلِ
عبقرياً كأنه زَنْبِقُ الحُلَا	دِ على قَرَعَةِ السَّرَى الأسيلِ ^(١)
أين من مسمع الزمان أغا	يُ عليهن روعةُ التمثيلِ
أين صوتٌ كأنه رَنَةُ البُدا	يُ في الناعم الوَرِيف الظِّلِ
فيه من نعمة الزامير مَعْنَى	وعليه قداسةُ الترتيلِ

(١) السرى : الجدول والأسيل : الطويل المسترسل .

وإذا أخذنا نقرأ في ديوانى حافظ وشوقى راعنا أنه لم يمت صاحب عمل مجيد ناصع في حياتنا الحديثة أو صاحب رأى وعقيدة ، أو صاحب مثل وغاية نبيلة ، إلا اجتمع لإخوانه على ذكره ، وأقاموا له تأبيناً حافلاً ، ووقف حافظ معهم أو وقف شوقى ، أو وقفاً جميعاً ينثران مدامعهما وأشعارهما على الراحل الكريم . ويحذو حذوهما بقية الشعراء في أقطارنا العربية .

وقد أخذت تظهر في التأبين هنا وهناك تلوينات حديثة لم يكن يعرفها الشعراء في العصور الماضية ، إذ كان الشاعر يحصر نفسه في المناقب الفردية الخاصة بالراحل ، أما في عصرنا الحديث فإن الشعراء أخذوا يعرضون في رثائهم للمناقب الاجتماعية ، وما أسداه الفقيه لمجتمع من وجوه يرّ وإصلاح في مختلف نواحيه ، فإذا مات مثلاً قاسم أمين الداعى لتحرير المرأة عرض الشعراء في رثائه لدعوته على نحو ما نجد عند حافظ وشوقى في تأبينه ، ولو أنهما لم يكونا حينئذ من رآيه .

ولعل أهم التلوينات التى أدخلت على المراثية الحديثة ما انصب من النزعات السياسية والوطنية فقد نزل الاستعمار بالأثم الشرقية ، ولم يلبث أن ظهر في كل بلد من بلادنا مجاهدون وزعماء استحقوا تمجيداً وأطناً . وكان كلما نعى البرق واحداً منهم هبّ شعراؤنا يوقعون على قيثاراتهم أشجان المواطنين وأحزانهم . وفي ديوانى حافظ وشوقى مراث لسعد زغلول ومصطفى كامل ومحمد فريد وغيرهم ممن تقدموا الصفوف ، وضغطوا على المستعمر بكل ما يملكون من قوى فى أوطانهم . وهذا حافظ يقول فى مصطفى كامل :

شاهدتُ يوم الحشر يوم وفاته	وعلمتُ منه مراتب الأقدارِ
ورأيتُ كيف تفى الشعوبُ رجالها	حقاً، الولاء وواجب الإكبار
تسعون ألفاً حول نعشك خُشَعٌ	يمشون تحت لوائك السيار
خطوا بأدمعهم على وجه الثرى	للحزب أسطاراً على أسطار
آناً يوالون الضحيج كأنهم	ركبُ الحجيح بكعبة الزوار
وتخالهم آناً لفرط خشوعهم	عند المصلّى يُنصتون لقارى

وواضح أنه. يصور فجيحة الأمة المصرية فيه ، والمرثية كلها تدور حول جهاده وما غرس في وطنه من حراب للمستعمر بما كان يكتب في صحيفة « اللواء » وبما كان يخاطب في أمته ضد كرومر والإنكليز ، وبمواقفه الوطنية التي ألهمت مشاعر المصريين ، وسعرت نيران الصراع فيهم ضد المستعمرين الغاشمين . ومرثية شوقي في سعد زغلول التي يستلها بقوله :

شيعوا الشمس ومالوا بضحاها وانحنى الشرق عليها فبكاهها

أروع ما ديجته يراعتة في الرثاء الوطني . وهو يضيف إلى مرثيته الوطنية مراى لزعماء العرب وقاديتهم في بلدانهم المختلفة ، فهذا فوزى الغزى أحد المجاهدين ضد الفرنسيين في سوريا الشقيقة ، تقيم له بلاده حفل تأبين ، فيأبى شوقي إلا أن يرفرف بروحه مع المؤمنين ، فيرسل بمرثية تُتلى في الحفل ، وفيها يقول :

يا (فوزى) تلك دمشق خلف سوادها ترمى مكانك بالعيون وترمى^(١)
(بردى) وراء ضفافه مستعبر^(٢) والخور^(٣) محلول الضفائر مطرق^(٤)
والطير في جنبات (دمر) نوح^(٥) يجدد الهموم خليهن^(٦) ويأرق^(٧)

وعلى هذا النحو أصبح عالمنا العربى الحديث أشبه بالجسد الواحد ، إذا اشتكى فيه عضو تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والآلام

(١) سواد دمشق : القرى التابعة لها .

(٢) بردى : نهر يشق دمشق ، والخور : شجر ، وضفائره : غصونه .

(٣) دمر : من ضواحي دمشق ، والخلي : الخالي من الهموم .

الفصل الثالث

العزاء

١

معنى العزاء

أصل العزاء الصبر ، ثم اقتصر استعماله في الصبر على كارثة الموت ، وأن يرضى من فقد عزيزا بما فاجأه به القدر ، فتلك سُنَّة الكون ، نولد ، ونمضي في الحياة سعداء أو أشقياء ، ثم نموت ، وكأن الناس راحلون وهم لا يفكرون عَقْد رَحْلهم إلا في أجدادهم ، فهي قرارهم ، وهي غايتهم التي ينتهون إليها ، ولا مفر لهم منها ولا خلاص .

وإذن فليقبلوا الحياة كما هي ، ليقبلوها على أنها دار زوال وانتقال ، وليست دار بقاء واستمرار ، فكل يلعب دوره ويمضي ، ولا شيء يدوم . يقبل النهار المشرق ثم يدبر ويخرج الليل المظلم ، وينعقد السحاب وتبكي السماء ثم يصحو الجو ويصفو . والإنسان ضعيف أمام هذا التغير والتقلب ، لا يملك من أمره ولا من حياته شيئا ، فسرعان ما يعصف به الموت ، فإذا هو محمول على آلة حدباء .

إنه عاجز ، وليس له إلا أن يذعن إذعانا خالصة ، إذعانا لا تشوبه مقاومة ، وهل من أمل في مقاومة ، وهو يرى نفسه كل يوم مشدوداً في خيوط قوية بيد قاهرة تدبر شؤنه ، وقد تنتهى به إلى الإخفاق في أمله بل في روحه ووجوده ، فإذا هو لا يستطيع أن يستأنف نشاطاً ولا فوزاً وانتصاراً .

وهؤلاء الذين نحبهم ونؤثرهم على أنفسنا من آباء وأبناء وإخوة ماذا نستطيع أن نقدم لهم حين تحين ساعتهم ؟ إننا مهما فكرنا وقدرنا لن ندفع عنهم صيحة الموت البغيضة . ونحن نذرف الدموع لفراقهم مدرارا ، ولكن ماذا تفيد الدموع ؟ وماذا يفيد الأسى والحزن ؟ إنه لا بد من أن نحتمل المكروه ونتعزى ونصبر على ما نزل بنا .

وكان شاعر الجاهلية القديم يفكر في هذا كله ، فكان يحزن ويبكى ويلتاع ويعبر عن ذلك تعبيراً قوياً في شعره ، ثم يعود إلى نفسه ، فيرى أن كل ما يصنعه لا يغييه شيئاً ، لأن الحنة في حقيقتها حنة كبيرة ، محنة الناس جميعاً ، يُمتحنون بها صباح مساء ، ولا يستطيعون لها رداً ولا دفعا . فليترك البكاء والدموع وليستسلم للموت مخدولاً ، بل يائساً مقهوراً ، فالناس كلهم يموتون والناس كلهم يصابون بحميم أو قريب ، ولعل ذلك ما جعل الحنساء تقول :

ولولا كثرة الباكين حولى على إخوانهم لقتلتُ نفسى
وما يكون مثل أخى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسى

فهى تجد فى بكاء غيرها ما يعزىها عن أخيها ويسليها عن مصيبتها فيه ، وكان غيرها من الشعراء يمد بصره إلى أفق أوسع ، فيرى أن الحزن والبكاء لا يردان أحداً ، وأن حرياً به أن يكون جلدا صابراً على المصيبة تلم به ، ولا يستشعر خذلانا ولا ضعفاً .

ونجد عند كثير من الجاهليين نزعة إلى الاستسلام للقدر ، فالموت كأس يذوقها الجميع ، لم يسلم منها أحد ، لا ملك ولا سوقة ، وكم من دولة دالت وجماعة بادت ، من مثل قوم نوح وعاد وثمود ومثل كسرى وسابور ملكى الفرس وملوك الروم المختلفين وملوك الحيرة . ولعدى بن زيد العبادى شعر كثير فى ذلك ، يقول فى بعض قصيده :

أين أهل الديار من قوم نوح ثم عاد من بعدها وثمود

ويقول :

أين كسرى، كسرى الملوك أنوشيز وان أم أين قبله سابور
وبنو الأصفر الكرام ملوك ال روم لم يبق منهم مذكور

وكان الجاهليون يثيرون هذه الأفكار وما يشبهها للتعزى عن الموت وبيان
أن داعيه لا يقلع ، وأن كل إنسان إليه يرجع .

ولما عمت أضواء الإسلام في النفوس أخذت تظهر معه نزعة جديدة في العزاء
تقوم على التسليم لله والرضا بقضائه والصبر على امتحانه احتساباً وطلباً للأجر
والمثوبة من عنده واقتداء بقوله سبحانه «وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ
قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُهْتَدُونَ » .

٢

العزاء في الأهل

كانت العادة في الجاهلية أن يعزى الشاعر نفسه لإزاء من يفقد من أهله
وأشراف قبيلته ، فعزاؤه يوجه قبل كل شيء إلى نفسه ، ثم إلى من حوله . ولما جاء
الإسلام ونشأت طبقات الخلفاء والولاة ، وأخذت تتألف حول كل خليفة وأمير
أو حاكم كبير طبقة من الشعراء تقف نفسها على مديحه وتسليته إن أراد التسلية
رأينا هذه الطبقة تعتمد حين تلم به مصيبة إلى تعزيتة فيها . ودار ذلك أكثر ما دار
حول فقد الأبناء وأفلاذ الأكباد ، فكان الشاعر إذا مات ابن خليفة يملأ إلى
تخفيف بلواه فيه بأبيات تحد من لوعته ، وتكسر من فجيعة ، بما يذكر من .
أن الموت حتم واجب على الناس ، فكل نفس ذائقة الموت ، وكل إنسان راحل
إلى القبر ، على نحو ما قال بعض الشعراء لعمر بن عبد العزيز وقد توفى ابنه
عبد الملك :

تَعَزَّى أُمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ لَمَّا قَدْ تَرَى يُغْذَى الصَّغِيرَ وَيُوَلِّدُ
هَلْ ابْنُكَ إِلَّا مِنْ سَلَالَةِ آدَمَ لِكُلِّ عَلَى حَوْضِ الْمَنِيَةِ مَوْرِدُ

وقد يعرض الشعراء لمعان اجتماعية ، وخاصة معنى الشماتة في المصيبة ،
فيحدثون عن أن الموت لا يسلم منه أحد ، وأن من لم يدركه اليوم في عزيز له
يدركه غدا ، فَيُشْطَرُّ مِنْهُ أَصْلَهُ أَوْ فِرْعَهُ ، ويفجع في أحبته ، وتقرَّح جفونه في
أهل مودته . وألم ابن عبد الأعلى بهذا المعنى في تعزيتة سليمان بن عبد الملك في
وليَّ عهده وأكبر ولده أيوب ، إذ يقول :

وَلَقَدْ أَقُولُ لَذَى الشَّمَاتَةِ إِذْ رَأَى جَزَعِي وَمَنْ يَذُقِ الْحَوَادِثَ يَجْزَعُ
أُبَشِّرُ فَقَدْ قَرَعَ الْحَوَادِثُ مَرْوِي وَافْرَحَ بِمَرْوَتِكَ الْقِيَّ لَمْ تُفْرَحْ
إِنْ عِشْتَ تُفْجِعُ بِالْأَحَبَّةِ كَلَامِهِمْ أَوْ يُفْجِعُوا بِكَ إِنْ هُمْ لَمْ تُفْجِعْ
أَيُّوبُ مَنْ يَشْمَتُ بِمَوْتِكَ لَمْ يُطِقْ عَنْ نَفْسِهِ دَفْعًا وَهَلْ مِنْ مَدْفَعٍ

ووقف الشعراء في مرأى الخلفاء بأبنائهم عند فكرة الاحتساب وطلب ما عند
الله ، وأكثروا في ذلك كما أكثروا من الحديث عن خسارة الدين بموتهم وانها
أركانهم بفقدهم ، وفي ذلك يقول أشجع معزيا هرون الرشيد في ابن له مات شابا :

نَقَصَ مِنَ الدِّينِ وَمِنْ أَهْلِهِ نَقَصُ الْمَنَايَا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ
قَدَّمَتهُ فَاصْبِرْ عَلَى فَقْدِهِ إِلَى أَبِيهِ وَأَبِي الْقَاسِمِ

وهو يريد بأبي القاسم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويقول له إنه في ميزانك
يوم القيامة ، وقد قدمته فلا تجزع ، واصبر حتى يكتب لك في باقياتك
الصالحات . ومن تعازى الخلفاء المشهورة في أبنائهم مرثية الشاعر المصري كمال
الدين بن النيه في علي بن الخليفة الناصر لدين الله ، وهو يستهلها بقوله :

النَّاسُ لِلْمَوْتِ كَخَيْلِ الطُّرَّادِ فَالسَّابِقُ السَّابِقُ مِنْهَا الْجَوَادُ

والله لا يدعو إلى داره
والموت نقاذ على كفه
إلا من استصلح من ذا العباد
جواهر يختار منها الجياد
والمرء كالظل ولا بد أن
يزول ذاك الظل بعد امتداد

ثم أخذ يبكيه حتى انتهى إلى قوله :

خليفة الله اصطبر واحتسب
في العلم والحلم بكم يقتدى
فما وهى البيت وأنت العباد
إذا دجا الخطب وضل الرشاد
وأنت لج البحر ما ضره
أن سال من بعض نواحيه واد

وكثيراً ما كان الشعراء يحولون التعزية إلى البكاء على الفقيد والإشادة به ، كأنهم يرون في ذلك ما ينفس بعض الشيء عن الأب الحزين ، وكأنهم يداوون القرح بالقرح ، فهم يكون معه ويسترجعون حتى تثوب نفسه إلى رشدتها وتسكن بعد فورة الدموع وثورة النواح والأنين ، فقد أدت للولد الحقوق وكأن التراب لم يسوار إلا أعظمه ، أما ذكره فباقية ، وهى ذكرى تبكى ، ونفس البكاء فيها هو الصبر والتأسى . ومعنى ثان في هذا العزاء ، كأن الشاعر يقول إن الناس فداء هذه الخلال ، وليس بينهم إلا من يفدى الراحل الكريم . ومن هذا اللون قول أبي تمام في ابنين لعبد الله بن طاهر صاحب خراسان لعهد المأمون ، وكانا ماتا صغيرين في يوم واحد :

تجمان شاء الله ألا يطلعا
إلا ارتداد الطرف حتى يأفلا
إن الفجعة بالرياض نواضراً
لأجل منها بالرياض ذوابلا
لو يُنسان لكان هذا غارباً
للمكرمات وكان هذا كاهلاً^(١)
لهنى على تلك الشواهد فيهما
لو أمهلت حتى تكون شمانلا
لغدا سكونهما حببى وصباها
خلماً وتلك الأريحية نائلا

(١) ينسأ : يؤجل ، والغارب : أسفل العنق إلى الظهر .

إن الهلال إذا رأيت نموّه أيقنت أن سيصيرُ بذراً كاملاً

فهو يبكى طفلين في المهد ، ومع ذلك أبى إلا أن يخلع عليهما شواهد لشمالك زكية ، وقد أخذ يصورهما بصور تكبر من المصيبة فيهما ، وكأنه يريد أن يشقى غُلّةً أبيهما ويطنىء حرقه فؤاده ، فهما روضان ذبلا في إبانهما ، وهلالان أصابهما الحاق في أولهما ، وهما نفضحة من أبيهما لم تلبث أن فثيت وذابت في خِصَمَ الحياة .

ومن أطرف ما جاء في عزاء الأبناء مرثية للمتنبي في أبي الهيجاء بن سيف الدولة ، فقد رحل عن أبيه إلى الدار الباقية قبل أن يبلغ مبلغ الرجال ، فبكاه المتنبي وعزاه فيه بقصيدة رائعة من قصائده ، افتتحها بوصف الحزن عليه وخمش النساء لوجوههن ولطمهن وندبهن ، وقال إن مثله لا يُسكى عليه بقدر سِنّه ، فهو صغير ، وإنما يبكى عليه بقدر أصله وشرفه ، ثم توجه إلى سيف الدولة قائلاً :

عزاءك سيف الدولة المقتدى به فإنك نصل والشدائد للنصل
ولم أر أعصى منك للحزن عبْرَةً وأثبت عقلاً والقلوب بلا عقل
ومن كان ذا نفسٍ كنفسك حرّةً فقيه لها مُغْنٍ وفيها له مُسْلِي

ورجع يتحدث عن الموت الذى نزل بهذا الغلام مستعبداً باكياً ، مستخرجاً العظات على عادته ، فالدنيا كلها غرور ، والبقاء فيها قليل ، واستمرّ في ذمها ، حتى انتهى غاضباً إلى قوله :

وما الدهرُ أهلٌ أن تؤمّلَ عنده حياةٌ وأن يُشتاقَ فيه إلى النسلِ

والعزاء في الأبناء كثير ، أما البنات فيندر العزاء فيهن وخاصة في العصور الأولى ، وكان هذا أثر من آثار عرب الجاهلية الذين يقول فيهم القرآن الكريم « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بُشِّرَ به ، أيمسكه على هُون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون » .
ومن الخلفاء الذين حزنوا حزناً شديداً لفقد إحدى بناتهم الخليفة المهدي ،

ومن عزاء فيها أبو العتاهية . وهذا بعض عزائه :

كَأَنَّ كُلَّ نَعِيمٍ أَنْتَ ذَائِقُهُ مِنْ لَذَّةِ الْعَيْشِ يَحْكِي لَمْعَةُ الْآلِ
لَا تَلْعَبَنَّ بِكَ الدُّنْيَا وَأَنْتَ تَرَى مَا شَتَّ مِنْ عِبَرٍ فِيهَا وَأَمْثَالِ
مَا حِيلَةُ الْمَوْتِ إِلَّا كُلُّ صَالِحَةٍ أَوْ لَا فَمَا حِيلَةُ فِيهِ لِحْتَالِ

ونعمة أبي العتاهية المشهور بها من الوعظ والتزهد في الحياة وبيان أن كلها مصائب واضحة هنا . وهو من أكثر الشعراء حديثاً عن الموت ، وأنه لا بد وافد على حال ، فالعاقل من يتجهز له ويعد نفسه لفراق الأهل والمال .

وعزى البحترى أحد بنى حميد المشهورين بالشجاعة والبطولة لعصره في ابنة له ماتت ، ومن الغريب أنه لم يجد باباً يدخله إلى عزائه فيها إلا ما كان يستشعره العرب في بناتهم ، فقد مضى يواسيه على هذا النحو :

الْأَسَى وَاجِبٌ عَلَى الْحُرِّ إِمَّا نَيْةً حُرَّةً وَإِمَّا رِيَاءَ
أَتَبَكَّى مِنْ لَا يُنَازِلُ بِالسَّيِّئِ فِ مَشِيحَا وَلَا يَهْزُ اللَّوَاءُ^(١)
وَالْقَى مَنْ رَأَى الْقُبُورَ لِمَنْ طَا بَ بِهِ مِنْ بَنَاتِهِ أَكْفَاءَ
لَسَنَ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ لَعَدَّ اللَّهُ مِنْهَا الْأَمْوَالَ وَالْأَبْنَاءَ
قَدْ وَلَدَنَ الْأَعْدَاءَ قَدْ مَا وَوَرَّ نَ التَّلَادِ الْأَقَاصَى الْبُعْدَاءَ^(٢)
لَمْ يَنْدُ تَرْبَهَنَّ قَيْسُ تَيْمٍ عَيْلَةً بَلْ سَحِيَّةً وَإِبَاءَ^(٣)
وَتَلَقَّتْ إِلَى الْقَبَائِلِ فَانْظُرْ أُمَهَاتٍ مُنْسَبِنَ أُمَ آبَاءِ
وَاسْتَزَلَّ الشَّيْطَانُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ لَمَّا أَغْرَى بِهِ حَوَاءَ

(١) المشيح : المانع لما وراء ظهره .

(٢) التلاد : المال القديم .

(٣) قيس : هو قيس بن عاصم التميمي ، وكان يند كل بنت تولد له : والترب : الجماعة ،

والعيلة : الفقر .

ولعمري ما العجز عندى إلا أن تبيت الرجالُ تبكى النساء

فهو يحمد له موت ابنته ، وأن كان القبر كُفِّسَهَا ، ويأخذ في تعداد مساوى المرأة في رأيه ، فهى لا تنازل الأبطال ، وقد تلد الأعداء ، وهى تنقل المال الموروث من بيت أبيها إلى الأقاليم الغرباء . إن كل امرأة حرة بالموت ، وكان قيس بن عاصم — فى رأيه — محققاً فى وأد بناته ؛ ويقول إن الله لم يعدهن فى زينة الدنيا إذ قال جل وعز « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » . وهذه مغالطة من البحرى ، لأنه يعرف أن جمع الذكور والإناث يغلب فيه الطرف الأول ، فكلمة البنون فى الآية الكريمة تشمل البنات ، وقد رأينا حملة القرآن على العرب لنفس هذا الموقف الذى يقفه البحرى . وغالط مغالطة أخرى فى أن العرب لا تنسب إلى الأمهات . بينما النسب إلى الأمهات عندهم شائع فى القبائل وفى الأفراد .

والحق أن العزاء هنا يتحول إلى ما يشبه هجاء المرأة . وهى على كل حال نظرة تستمد من القديم . وتلا البحرى كثير من الشعراء يذهبون هذا المذهب مثل كشاجم فى قوله :

تأس يا أبا بكر	لموت الحرة البكر
فقد زوجتها القبر	وما كالتبر من صبر
وعوضت بها الأجر	وما كالأجر من مهر
زفاف أهديت فيه	من الخدر إلى القبر
وقد يختار فى المكرو	للمرء وما يذرى
فقابل نعمة الله	وما أؤلاك من شكر

ولعل من الواجب أن نذكر هنا أن هذه النظرة تغيرت فى عصرنا ، ولم يعد لما ظل ولا ما يشبه الظل فى شعرنا ، إذ أصبح للمرأة شأن كبير فى حياتنا ، وأصبحت ركناً قوياً فى معيشتنا المادية والعقلية ، ولم تعد هينة على النفوس ، بل

أصبحت ذات منزلة كبيرة ، وقد ساهمت في كل شئوننا أثناء السلم وفي الحرب ،
ونالت كثيرا من حقوقها ، وهي في سبيل الظفر ببقية الحقوق . ومن هنا اختلفت
اللهجة في رثائها وفي التعزية فيها ، ولم تعد مثل أفكار البحترى وكشاجم تجرى
على ألسنة الشعراء ، إنما يجري مثل قول حافظ معزيا للبارودى في كريمته :

يا بنتَ (محمودٍ) يعزُّ على الورى	لمسُ الترابِ لجسمِكَ المنهوكِ
تركوا شبابك فيه نهبا لليلى	واهاً لغصَّ شبابك المتروك ^(١)
وحثوه فوق سنالكِ يا شمس الضحى	فبكى له بدْرُ السماء أخوك ^(٢)
يا نفسَ (محمودٍ) وأنتِ عليمه	بطريق هذا العالم المسوكِ
عهدوكِ لا تتصدَّعين لحادثٍ	أو أنتِ باقيةٌ كما عهدوكِ
هذا التراب - وأنتِ أعلم - ملتنى	هذا الورى من سوقه وملوكِ

وهذه نعمة أخرى فيها تقدير ، واعتراف بجلال الرُّزء . وقد مرَّ في حفلات
التأبين ما يوضح المساواة التامة في عصرنا بين فقد النساء وفقد الرجال

على أن شعراءنا القدماء إذا كانوا قد قصروا في رثاء البنات فإنهم لم يقصروا
في رثاء الأخوات والأمهات وربما كان المتنبي خير من عزى فيهن ، فقد توفيت
أخت سيف الدولة ، وهو نازل برحابه ، يغمره بصلاته ، فنظم فيها قصيدة بديعة
من قصائده ، تحدث فيها عن غدر الموت وأثر نعيمها في الناس وأثنى على خلاها
وصفاتها ، وما زال يثني عليها ، حتى قال :

فإن تكن خلقتُ أنثى لقد خلقتُ	كريمةً غير أنثى العقل والحسب
وإن تكن تغلبُ الغلباءُ عنصرها	فإن في الخمر معنى ليس في العنبِ
فليت طالعةُ الشمسين غائبةٌ	وليت غائبةُ الشمسين لم تغبِ

(١) الغص : الناعم .

(٢) حشا التراب : هاله .

فهى إن كانت أنثى الخلقه فإنها فى الشرف والعقل أعلى من الرجال ، وإن يكن أصلها التغلبى كريما فإنها أفضل من أصلها لحاسنها وشيمها ومعانيها الطيبة ثم يتمنى لو أن الشمس غابت وفقدت ، ولم تغب أخت سيف الدولة ولا فقدت . والتفت المتنبى بعد ثنائه إلى سيف الدولة يحذثه عن الأيام وعن أخت له قبلها فقدتها ، وأشاد به ، ودعا له أن لا تناله الليالى فإنها إن ضربت أصمت ، وحطمت القوى بالضعيف ، كما دعا له أن لا تعين من عاداه ، ثم تحدث عن فجعات الدهر وأن الإنسان يصاب دائماً بمحن ليست فى حسابه .

وللمتنبى تعزية أخرى لسيف الدولة فى أمه ، وهى لا تقل عن هذه التعزية روعة ولا جمالا ، افتتحها بأننا نعد السيوف والرماح لمنازلة الأعداء ، وتختبر منا المنون، دون قتال أو نزال ، ومضى يتحدث عن عشق الناس للعالم ، وكيف أن وصاها لا يدوم . وتحول يصف كثرة ما يتوالى عليه من مصائب الدهر، ثم انتقل إلى رثاء أم سيف الدولة فأبتهى مبالغا فى تأبينه ، مضيفا عليها خير الصفات وأجملها وأنبلها ، وما زال فى ذلك ، حتى قال مخاطباً سيف الدولة :

أسيفَ الدولة استنجدُ بصبرٍ وكيف بمثل صبرك للرجالِ
فأنت تعلم الناس التعزى وخوض الموت فى الحرب السجالِ
وحالاتُ الزمان عليك شتى وحالك واحدٌ فى كل حالِ

فهو يدعوه أن يستعين على مصيبتة فى أمه بالصبر ، لأنه أهله ، إذ له ثبات يفوق ثبات الجبال وركائنها . ثم قال له : إن الناس يتعلمون منك العزاء والصبر على اقتحام الموت وغمراته الشداد ، وإن الزمان نفسه ليتلون كالحرباء بألوان مختلفة فى السراء والضراء ، أما أنت فتأبى على حال واحدة فى الشدة والرخاء ، فمثلك حرى بأن لا يهن فى هذه النازلة ، وأن لا يصيبه خور ولا ضعف . ومن أبيات هذه المراثية :

ولو كان النساء كن فقدنا لفضلت النساء على الرجالِ
وما التأنيتُ لاسم الشمس عيبٌ ولا التذكيرُ فخرٌ للهلالِ

وواضح أنه احتج لتفضيل النساء على الرجال بحجة لطيفة ، فالشمس مؤنثة وهى تفضل الهلال بنورها الذى يغمر الآفاق .

العزاء والتهنئة

لم نتحدث عن العزاء فى الآباء وهو كثير ، غير أننا نقف منه عند موضوع طريف ، وذلك أن الخلفاء والسلاطين كانوا يتوارثون دولهم وإماراتهم ، فكان الشاعر يقوم بين يدى الخليفة أو السلطان الجديد يعزّيه فى أبيه ويهنئه بحكومته ودولته وما انتهى إليه من خلافة أو إمارة .

وأول من فتن هذا الموضوع ، وأظهر براعة فيه عبد الله بن همام السلولي ، وذلك أن معاوية توفى وخلفه ابنه يزيد ، فلم يقدم أحد على تعزّيته لدقة الموقف وصعوبته ، وما زالوا كذلك حتى فتح لهم ابن همام باب الكلام ، فقال :

أصبرُ يزيدُ فقد فارقتَ داميّةً واشكرُ حِباءَ الذى بالملك حاباك^(١)
 لا رُزءَ أعظمُ فى الأقوام قد علموا مامرُ زئتَ ولا عُقبى كعُقباك
 أصبحتَ راعى هذا الخلقِ كلهمُ فأنتَ ترعاهمُ والله يرعاك
 وفى معاويةَ الباقي لنا خلفٌ إذا بقيتَ فلا نسمعُ بمنعاك

ومعاوية الذى يشير إليه فى البيت الأخير هو ابن يزيد وولى عهده . والأبيات فيها براعة ، وفيها دقة بعيدة فى الإحساس ، ولطف ورقة فى الشعور .

ومن وقف هذا الموقف الدقيق ، وأحسن فيه ، بل كاد يقلب لحظته الحزينة إلى لحظة سرور وفرح أبو الشَّيْص الشاعر العباسى ، فإنه قام بين يدى الأمين بعد وفاة أبيه هارون فى طوس إحدى مدن إيران ، فقال :

جَرَّتْ جَوَارٍ بالسَّعْدِ والنَّحْسِ فنحن فى وحشةٍ وفى أنسٍ

(١) المقة : المحبة ، والحباء : العزاء .

العينُ تبكى والسِّنُّ ضاحكةٌ فنَحْنُ في مآتمٍ وفي عُرْسٍ
يُضحكننا القائمُ الأمينُ وتَبُّ كيننا وفاةَ الرشيدِ بالأَمْسِ
بدران : بَدَرُ أَضْحَى ببغداد في ١١ غُلْدُ وبَدَرُ بطوسَ في الرَّمْسِ (١)

وتعبر هذه الأبيات خير تعبير عن فرحة الشعراء بالأمين ، إذ كان محبوباً منهم ، قريباً إلى نفوسهم .

ولما توفي المعتصم وخلفه ابنه هرون الواصل ، تقدم إليه أبو تمام يعزيه ويهنيه بقصيدة طويلة ، افتتحها بالحزن على الراحل والإشادة بمناقبه ومحامده ، وما زال يدور في هذين المعنيين حتى قال :

ما دام هرونُ الخليفةَ فالهُدَى في غبطةٍ موصولةٍ بدوامٍ
للهِ أيُّ حياةٍ انبعثتْ لنا يوم الخميس وبعد أيِّ حِجَامِ (٢)
تلك الرزيةُ لا رَزِيَّةٌ مثلها والقَسَمُ ليس كسائر الأقسامِ
ما إن رأى الأقوامُ شمساً قبلها أَفَلَتِ فلم تعقبهمُ بظلامِ
أكرمَ بيومهم الذي مُلِكَتْهم في صَدْرِهِ وبعامهم من عامٍ

واستطرد في مدح الواصل بعد ذلك .

وعلى هذه الشاكلة أخذ الشعراء يصنعون في العزاء والتهنئة قصائد يُلمنون فيها بفضائل السابق واللاحق ، ويقولون إن ميزان الدولة والأمة لن يميل ، إذ تولته يد عادلة ، بل إن هذا الخليفة الجديد أرسلته العناية الإلهية لتجبر به الأمة ، ويتم لها صلاحها واستقامتها . وكثيرٌ هم الشعراء الذين وقفوا هذا الموقف ، ومن جلتى فيه عبد الله بن الحسن الجعفرى ، فقد مثل بين يدي العزيز الخليفة الفاطمى يعزيه في أبيه ويهنئه بخلافة مصر قائلاً :

(١) الخلد : قصر الخلافة ببغداد ، الرمس : القبر .

(٢) الحجام : الموت .

قد أصبح الجوهر العلوى منتقلا
يا منحةً كملت في محنة عظمت
قام العزيز بما أفضى المعز به
فقام أحفظ مسترعى رعى فكفى
فإن مضى كافل الدنيا وما ضمنت
وإن هوى الجبل الراسى فذا جبل
عمت خلافتها الدنيا برونقها
في خير من كان من خير الورى بدلا
لولاك في الدهر ما نال امرؤ أملا
إليه مضطلعا بالعبء مُحْتَمِلا
من بعد خير إمام قوم الميلا^(١)
فذا ابنه كافل عنه بما كفلا^(٢)
راس لنا بعده أعظم به جبلا
كأنه الشمس فيها حلت الحمل^(٣)

وفي الآيات نزعة شيعية واضحة ، فهو يتحدث عن الجوهر العلوى وكيف انتقل من المعز إلى ابنه ، ويسميها كافلى الدنيا ، ويجعل العزيز أحفظ من رعى العباد ، وما يزال يقابل بين الأب وابنه مترحما معزيا ، ومادحا مهنتا ، مستظهدا لبعض العقائد الشيعية .

ومن أجاد في هذا الموضوع ابن زيدون شاعر الأندلس المشهور ، فقد توفى أبو الحزم جهنور ملك قرطبة ، وخلفه ابنه أبو الوليد ، وكان صديقا له ، فنظم قصيدة بارعة ، استهلها بالعزاء والتهنئة على هذا النمط :

ألم تر أن الشمس قد ضمتها القبر
وأن الحيا إن كان أفلح صوبه
فقد فاض للآمال في إثمه البحر^(٤)
ودنب زمان جاء يتبعه العذر
لنا الليل إلا ريثما طلع الفجر^(٥)
فقل للحيارى قد بدا علم الهدى
وللطامع المغرور قد قضى الأمر

(١) الميل : الموج .

(٢) الكافل : الضامن .

(٣) الحمل : أول البروج .

(٤) الحيا ، المطر : والصوب : الانصباب .

(٥) الكاشحون : الأعداء .

وفى كل مكان من العالم الإسلامى نجد الشعراء يقفون هذا الموقف من
الحكام ، يعزفونهم ويهشونهم معبرين عن فرحة الناس بهم واستبشارهم بتسلمهم
لمقائيد الأمور بعد آبائهم ، منوهين بما تأمله البلاد من نعم تتم وآلاء تعم .
ولا بن نباتة أبيات تدور على كل لسان قالها يعزى بها السلطان الأفضل صاحب
حماة فى أبيه ويهش على تحول الملك إليه ، وهى تجرى على هذا النحو :

هنا محاذك العزاء المقدما	فما عبس المحزون حتى تبسما
ثغور ابتسام فى ثغور مدامع	شبهان لا يمتاز ذو السبق منها
سقى الغيث عنا ترربة الملك الذى	عهدنا سبجايه أبر وأكرما
ودامت يد النعمى على الملك الذى	تدانت له الدنيا وعز به الحصى
مليكان : هذا قد هوى لضريحه	برغى ، وهذا للأسرة قد ستما

وكل هذه براعات تفنن الشعراء فى إخراجها وتصويرها ، حتى يقلبوا الحزن
مسرة والبؤس نعيما ، فإذا كان اليوم قد استهل عابسا مكفها ، فإنه انفرط مستبشرا
مبتهجا ، إنه يوم ماتم وعرس ، وشقاء وسعادة ، وظلام وضياء ، والضياء هو الذى
يسود ويشرق فى جنبات الدولة والأمة كما يشرق النهار . ولحق أن شعراءنا
أجادوا فى هذا الموقف ، واستوفوا فيه حظوظا لا بأس بها من المقدرة والمهارة .

٤

الحياة والموت والخلود

دارت هذه المعانى الثلاث فى كثير من قصائد العزاء ، إذ كان من
ييكى ميتا أو يعزى فيه يعرض للحياة وأنها زائلة ، وأن الموت نهاية كل
شخص ، وأن على الناس أن يفكروا دائما فى هذا المصير الذى ينتظرهم ، وأن
يتجهزوا له ويعدوا زادهم قبل أن تأزف الآفة وتحل الكارثة ، وهى كارثة مقررة

لا مفرّ منها ولا محيص .

وكانت هذه الأفكار تمر بمخيلة الشاعر الجاهلي ، وكان يلم بها ، ولكن في سداجة وبساطة تلائم حياته ، فلما ارتقى العقل العربي أخذت هذه الأفكار تتشعب وتتفرع ، وتمتد جذورها في طبقات جديدة من الثقافة وفهم الحياة وما قرأ العرب عند الأمم الأجنبية من حكم وآراء فلسفية .

وأبو العتاهية الشاعر العباسي أول من بسط الحديث في الموت والحياة ، وساعده في ذلك أنه ساق شعره في ميادين الزهد والوعظ ، واتخذ من الموت أساسا لتفسير الناس من الحياة وبيان أن نعيمها لا قيمة له وكذلك كل ما يتصل بها ، فالمنية تغدو على الناس وتروح ، وكل سيموت ، ولو عُمرَ ماعمر نوح ، فالموت هو النهاية والغاية ، وهو الدائم المستمر ، أما الحياة . فسرعان ما تنمحي وتزول ، ولا يبقى للإنسان إلا الصالحات . وهو يبدى ويغيب في أن الناس وقوف على هوة تحت أقدامهم ، وكل فرد يهوى فيها بدوره ، فلا يغرن أحدا الغرور ولا ما يعيش فيه من ترف ونعيم ، فإن ذلك سرعان ما تدبّل أزهاره ، وتتحطم صفوره أمام الموت الرهيب ، واسمعه يقول في بعض من رثاهم :

لقد كنتُ أغدو إلى قصرِهِ	وقد صيرتُ أغدو إلى قبرِهِ
أنته المنية مقتالة	رويدا ، تخلل من سترِهِ
فلم تُفنِ أجنادهُ حوله	ولا المزمعون على نصْرِهِ
وخلّى القصورَ لمن شادها	وحلّ من القبر في قعرِهِ
وبدّل بالقرشِ بسطَ الثرى	وطيب ندى الأرض من عطرِهِ
وأصبح يهتدى إلى منزل	عميق تؤنق في حفرِهِ
تفلق بالترب أبوابهُ	إلى يوم يؤذن في حشرِهِ
أشدّ الجماعة وجداً به	أشدّ الجماعة في طمرِهِ ^(١)

وكان المنيّة تتحول عند أبي العتاهية إلى موعظة ، يتخذ فيها العبرة والمثل من

الموت ، فالتناس وُلدوا للموت ، وكل ما يبنونه من قصور يؤول إلى خراب ، وكل ما يتخذون من عز الدنيا يؤول إلى ذُلّ القبر ووحشته . وها نحن ندفن بأيدينا من نحبهم ، ونلقى بهم وراء التراب والأحجار ، ألا ما أحقر الدنيا وكل ما فيها من سرور المجد وأبهة الترف والنعيم ! . والحكيم من ذهب إلى ما يُريه العقل منها ومن نهايتها المحتومة لا إلى ما تريه العين من مباهجها الكاذبة ومفاتها الخادعة .

وما يزال الشعراء بعد أبي العتاهية يشدون في قيثاره شعرهم هذا الوتر حين يرون ، حتى يطلع المتنبي فيضيف وترا جديدا وأنعاما جديدة ، وذلك أنه كان حائقا على الدهر ، لأنه لا يحقق له آماله ، وكانت آماله فوق أن تتحقق ، إذ طلب فيما طلب الملك والسيادة ، فغضب على الدنيا والزمان ، وذهب بهجوما هجاء قبيحا في شعره . وأخذ نفسه بقراءة الفلسفة وما شاع عند العرب ومتفلسفيهم من حِكَم تتصل بالدهر وما يُرمَى به الإنسان من سهام الزمن . فلوّن شعره بألوان فلسفية ، فيها الحكمة وفيها العبارة المنقولة عما قرأ ، ومن هنا اصطبغ رثاؤه بلأصباغ لم تكن معهودة للعرب ، كقوله لسيف الدولة يعزیه عن أخته الصغرى :

ولذيدُ الحياة أنْفَسُ في النَّفْسِ وأشهى من أن يُملَّ وأحلى
وإذا الشيخُ قال أفَ فما مـلَّ حياةً وإنما الضعفَ مَلَّا
آلَةُ العيشِ صِحَّةٌ وشبابٌ فإذا وَلَيَّا عَنِ المراءِ وَلَيَّا
أبدأ تَسْتَرِدُّ ما تهب الدنيا فياليت جودها كان بُخْلا

فهو يقول إن ما تستلذه النفوس من الجانب المادى في الحياة يجعلها تستطيلها وتستديمها ولا تملها ، يشير بذلك كما يقول شارحوه إلى ما شاع عند الحكماء من أن النفس تتعلق بالهمم الترابية ، ولا تتعلق بالعالم العلوى إلا إذا شَقَّتْ ووصَفَتْ من كدرها . وفي البيت الثانى يؤكد هذا المعنى ، فالشيخ لا يسأم الدنيا وإنما يسأم ضعفه وهرمه . والحياة إنما تطيب — كما يقول في البيت الثالث — بالشباب وصحة الجسم ، فإذا ذهب عن الإنسان فسد عيشه . وفي البيت الرابع يردد حكمة معروفة وهي : الدنيا تطعم أولادها وتأكلكهم . وعلى هذا النحو يربط شراحه دائما بين

شعره وبين الحكيم التي كانت تروى لعهد عن المتفلسفة والحكماء ، ومن هنا نقول إنه أدخل على القيثارة العربية وترًا جديدًا ، يسقط منه هذا النغم وما يماثله . ولعل أهم مراثيه التي يتضح فيها هذا الجانب مرثيته التي يعزى بها عضد الدولة بن بُوَيه وقد ماتت عمته ، إذ يقول في تضاعيفها :

نحن بنو المَوْتِ فما بالنا نعاْفُ ما لا بُدَّ من شُرْبِهِ
تَبْخَلُ أَيْدِينَا بأرواحنا على زمانٍ هي من كَسْبِهِ
فهذه الأرواح من جَوْهِ وهذه الأجسام من تُرْبِهِ
لوفكر العاشق في مُنتَهَى حُسْنِ الذي يَسْبِيهِ لم يَسْبِهِ
لم يُرَ قرنُ الشمس في شَرْقِهِ فشكَّتِ الأنفُسُ في غَرْبِهِ^(١)
يموتُ راعى الضَّان في جهله مَوْتَةً جالينوسَ في طِبِّهِ
وربما زاد على عُمرِهِ وزاد في الأَمْنِ على سِرْبِهِ^(٢)

وقد أشار السابقون إلى أن البيت الثاني منقول من قول بعض الحكماء . « إذا كان نشوء الأرواح من سكرور الأيام ، فما لنا نعاْف رجوعها إلى أماكنها » وكذلك البيت الثالث مأخوذ من قول أحد الحكماء : « اللطائف سماوية والكثائف أرضية وكل عنصر عائد إلى عنصره » يريد أن الإنسان مركب من جوهر لطيف وجوهر كثيف ، والأول من الجو والهواء ، والثاني من الأرض والتراب ، وهو نفس ما جاء في بيت المتنبي . وزعموا أن البيت الرابع مشتق من قول بعض الحكماء : « النظر في عواقب الأشياء يزيد في حقائقها ، والعشق عمى الحسَّ عن درك رؤية المعشوق » .

والحقيقة أن الأبيات كلها يظهر عليها أثر القراءة في كتب الفلسفة . ولا ريب في أن المتنبي كان يقرؤها ، وقد كان الفارابي أحد خُصَمائِهِ في حضرة سيف الدولة ، ولا بد أنه قرأ كتبه ، كما قرأ لغيره من المتفلسفة ، ونقل عما قرأ هذا النقل

(١) قرن الشمس : أول ما يبدو منها .

(٢) السرب هنا : النفس والأولاد .

البدیع ، فشتان بین العبارة الأصلية وما صارت إليه ، فقد أصبحت تلمع وتومض وكأنها النجم الثاقب ، إذ كانت للمتنبي مقدرة لا تبارى في الحشد والتركيز . وانظر إلى البيت الخامس الذي ركز فيه فكرة الفناء وأن حدوث الأشياء يقترن به زوالها ، فقد استعان بصورة قوية لخص فيها كل ما أراد بيانه فن رأى الشمس طالعة عرف أنها لا بد غاربة . وركز في البيت السادس فكرة أن الموت لا يسلم منه وضیع ولا شریف ولا جاهل ولا عاقل ولا طيب ولا مطبوع ، وجالينوس طبيب وفيلسوف يوناني مشهور . وتوغل في المعنى ساخرا ، فقال إن راعى الضأن ربما زاد على جالينوس عمرا ، وكان آمنا على نفسه وولده مع جهله وقلة عمله وعلمه .

وما يزال المتنبي يعرض مثل هذه الأفكار وأن الموت غاية كل حي ، وأن الدنيا ليست إلا طريقا إليه ، وأن كل إنسان بل كل ما في الكون ينتهي إلى فساد . ويخلفه أبو العلاء فيجتمع عليه إحساسه الحزين بعاقبته وفقد بصره ، وما قرأ في كتب التلافة عن التشاؤم والزهد في الدنيا ، وما قرأه عند المتنبي من صمط على الحياة وذم شنيع لها . ويتحول كل ذلك في قلبه إلى بركان ثائر لا يهدأ ولا يسكن أبدا ، بل ما يزال يلفظ بالحُصم ، ولا يزال يتطاير شررها في شعره . ومن أروع مراثيه قصيدته التي يري بها فقيها حنفيا ، وهي تنفجر منذ مطلعها بهذا السيل الحزين ، إذ يقول :

غَيْرُ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي نَوْحُ بِالْكِ لَا تَرْتُمُ شَادِي^(١)
وشبيهُ صَوْتِ النَّعِيِّ إِذَا قِيدَسَ بِصَوْتِ الْبَشِيرِ فِي كُلِّ نَادِي
أَبَكْتُ تَلَكُمُ الْحَمَامَةُ أَمْ غَنَّتْ عَلَى قَرْعِ غُضُنِهَا الْمِتَادِ
صَاحِ هُذَي قُبُورُنَا تَمْلَأُ الرُّحُوبَ فَأَيْنَ الْقُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادِ^(٢)
خَفَّ الرِّطَاءُ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الْإَرْضِ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ

(١) الشاذى : المنفى .

(٢) غاد : من القبائل العربية القديمة التي هادت

وقبيحُ بنا وإن قَدُمَ العهدُ دُ هوانُ الآباءِ والأجدادِ
سِرٌّ إنَّ اسطعتَ في الهواءِ رُويَدًا لا اختيلا على رفاتِ العبادِ^(١)
رُبَّ لَحْدٍ قد صارَ لحدًّا مرارًا ضاحكٍ من تزامِ الأضدادِ
ودفينَ على بقايا دفينٍ في طويلِ الأزمانِ والآبادِ
تَعَبٌ كُلُّها الحياةُ فما أَعَدَّ جَبُّ إلا من راعِبٍ في ازديادِ
إنَّ حزنًا في ساعةِ الموتِ أضعا ف سرورٍ في ساعةِ الميلاَدِ
خُلِقَ الناسُ للبقاءِ فضَلَّتْ أمةٌ يحسبونهم للنَّفادِ
إنما يُنقلون من دارِ أعما ل إلى دارِ شِقْوَةٍ أورشادِ
ضجعةُ الموتِ رَقْدَةٌ يَسْتريحُ الـ جِسمُ فيها والعيشُ مثلُ الشَّهادِ

فهو يقول إن نوح الباكي الحزين وغناء الشادى الفرح كلاهما لا يفيد الإنسان ولا يجديه نفعاً في هذه الحياة المظلمة البائسة الشقية ، وإنه ليسمع فيجبد صوت الناعى التاكل كصوت البشير المهنيء ، فالصوتان يتشابهان في كل شيء ، وهذا الحمام طالما قال الشعراء إنه ينوح ، وأبو العلاء لا يستطيع أن يجزم بذلك ، فهو لا يدرى أينوح أم يغنى . إن الغناء والنواح جميعاً يتشابهان عليه ، كما تتشابه الدنيا في مسراتها وأحزانها ، فهى جميعاً تستوى وتتحد في رأيه ، وتكون هذا الظلام المطبق الذى يضغط على أنفاسه .

ويلتفت إلى سامعه وقارئه ليريه أن الدنيا كلها ليست إلا جنازة قائمة ومقبرة كبيرة تمتد من أقدم العهود ، من عهد عاد إلى عهده ، وغاية الأمر أن كثيراً من أجزائها انمحت معالمه ، ففسير اليوم عليه غافلين ، وما أحرانا أن نسير هونا ، لأننا نسير على أديم مؤلف من أجساد الآباء والأجداد ، وأولى بنا أن نكرمه وأن لا نهينه حفظاً لحقوق الأسلاف . ويسخر سخريته الرائعة من أن اللحد الواحد قد يضم أشخاصاً متباينين بين صالح وطالح وجاهل وعالم وغنى وفقير ، حتى إن اللحد نفسه ليضحك ويعجب من اجتماع الأخيار والأشرار فيه .

وواضح أن الأبيات تحمل تشاؤمَ أبي العلاء وشكّه في الخير والشر وازدراءه للدنيا وكل ما فيها . وبعد أن بلغ بنا هذا المبلغ من السخط عليها لما تحمل من شقاء الإنسان وعذابه أخذ يعجب لمن يرغب فيها مع كل هذا الأذى ومن يريد أن تطول مدته فيها مع كل هذه التعاسة . وقارنَ بين السرور في الميلاد والحزن في الموت فوجد الثاني يزيد الأول أضعافاً مضاعفة ، وما الحياة كلها في رأيه إلا سجون من الحزن والضيق وغياهب من الألم والعذاب .

واطمأنت نفسه بعض الاطمئنان ، فتحدث عن بقاء الإنسان بعد الموت ، فقرر خلوده ، وردّ قول من يقول بالفناء ومن ينكرون البعث والحساب والنعيم والحجيم والجنة والنار ، فالتاس خلّقوا للأبد وللبقاء دون الفناء ، وما الموت إلا انتقال من دار إلى دار ، هي دار الخلود التي فيها يعدّ البخاني الشقي وينعم الراشد السعيد . وانتهى في البيت الأخير إلى تشبيه الحياة باليقظة والموت بالنوم ، وكأنه يفضل الموت على الحياة ، فالعين ترتاح إلى النوم ولا ترتاح إلى السهد ، بل تشقى به وتتعب .

وهذه الأفكار والمعاني الدائرة حول الحياة والموت والخلود التي تناوها أبو العتاهية والمنتبي وأبو العلاء تعلّق بها شعراء الرثاء في الأقطار الإسلامية المختلفة ، فأينما وليت وجهك رأيت أسياباً منها في رثاء الشعراء ، إذ أعجبوا بها إعجاباً لا حد له ، فذهبوا يطوفون حولها ، ويتشبهون بها ، ويستوردون في أشعارهم منها ، وخاصة من المنتبي وأبي العلاء ، فقد عنتَ لهما وجوه الشعراء على مر العصور ، وأصبحت المورد الذي لا ينفد ، والكنز الذي لا يقنى .

ومن أفاد منهما لعصرنا في مراثيه شوقي ، فإنه عنى بقراءة شعرهما ، والاحتذاء على مثاله ، في كل ما نظم وصاغ من قصيد . وعاش يقلد المنتبي خاصة في حكمه وكثرة ما يثر منها في شعره .

وقد نقل ظاهراً من أفكاز أبي العلاء ، وإن لم يكن له تشاؤمه ولا بؤسه ، ولكن ما يزال يعنى بتقليده ونقل بعض أفكاره ، وأقرّ له هذه المقدمة في رثاء جدته :

خُلِقْنَا للحياة وللمماتِ ومن هذين كلُّ الحادثاتِ
ومن يُؤلّدَ يَعيشُ ويمتَ كأن لم يمر خياله بالكائناتِ

ومَهْدُ المرءِ في أيدي الرّواقي كنش المرء بين النائمات^(١)
وما سَلِمَ الوليدُ من اشتكاء فهل يخلو المعمرُ من أذاة
هي الدنيا قتالٌ نحن فيه مقاصدُ للحسام وللنفاة
وكلُّ الناس مدفوعٌ إليه كما دُفِعَ الجبان إلى الثبات
نرّوع ما نرّوع ثم نرّمى بسهمٍ من يدِ المقدوراتِ

وتستطيع أن تلاحظ المشابهة بين هذه الأبيات وبعض أبيات أبي العلاء السابقة ، ولكنه إنما يتناول ظاهرها منها ، لأنه لم يكن عميق الفكر مثله ، ولا كان له فلسفته ولا بؤسه النفسى . وقد ذهب يكثر — على شاكلة المنبى — من الحكم ، ومن طريف ما جاء به منها فى مرثيته قوله فى مرثية محمد فريد التتى صاغها صياغة على نمط مرثية أبى العلاء السابقة :

كرة الأرض كم رمت صولجباناً وطوت من ملاعبٍ وجيادٍ
والفبار الذى على صفحتها دورانُ الرّحى على الأجسادِ

ويقول فى رثاء مصطفى كامل :

دقاتُ قلبِ المرء قاتلةٌ له إن الحياة دقائق وثوانى
فارقع نفسك بعد موتك ذكرها فالذكرُ للإنسان عُمرٌ ثانى

ولكن هذه الحكم وما يشبهها عنده ليست ثمرة غضب على الحياة ولا زهد فيها ، وهى لذلك لا تكون لها روعتها عند الشعراء الثلاثة السابقين ، فقد كان المتنبى برما ساخطاً على الحياة بل ناثراً ثورة عنيفة ، ولذلك كان ذمه فيها طبيعياً ، وكذلك ذمُّ أبى العتاهية وأبى العلاء ، إذ كانا رافضين لها زاهدين فيها زهداً حقيقياً ، فطبعى أن يشوهوها وأن يقبحوها وأن لا يروا منها إلا الجانب

الأسود البغيض ، أما شوق فشيء من ذلك كله لم يكن كامناً في نفسه ، ولذلك يبدو فيه التكلف والتصنع وأن الأفكار لا تنبع من قلبه ، ولا تجرى من داخله ، ولولا مهارته الموسيقية وإبداعه الفني لبان عجزه وضعفه وتكلفه .

وربما كان نسيب عريضة الشاعر المهجري أهم المعاصرين تعبيراً في رثائه عن الخلود ، فله مرث في أخيه ، بكاه فيها ، وليس هذا ما يهمننا ، إنما يهمننا أنه وقف عند فكرة الصراع بين الجسد والروح وأطال الوقوف نافذاً إلى فكرة الخلود . وخير ما يصور ذلك مرثيته «ذكرى الغريب» وهو يفتتحها على هذه الشاكلة :

غريبٌ على الباب يرجو الدخولاً أثار النوى فيه شوقاً طويلاً
ألا أدخِلهُ أهيلَ الخلودِ إليكم ولا تمرموه مقيلاً^(١)
قضى العمرَ في التَّيه في القفر حتى نفثه الحياةُ فألقى السبيلاً
وأبصر أنواركم في اشتعالٍ فسار إليها يروم الوصولاً
أهيلَ الخلود افتحوا فهو منكم وهيئات عن بابكم أن يميلاً
تفرَّب في الأرض عمراً قصيراً ولم يك في الناس إلا دخيلاً
تخلص لا آسفاً من حمام وحطَّتمْ أشراكهم والكبولا
وأغفل في الأرض أهلاً وربَّها وألقى رداء التراب الثقيلاً

والمرثية طويلة ، وهي تدور كلها حول المعاني التي نراها هنا ، فأخوه قد اغترب حقبة من الزمن في الأرض ، وكأنه كان في تيه أو في قفر ، ومع ذلك كان لا يزال يرقب أنوار الخلود ، ويتوجه إليها مصعداً في الدرب ، وما زال يرقى على الدَّرج حتى قرع الباب يريد الدخول والوصول . وما هوذا قد وصل بعد نأيه واغترابه وبعد أن تخلص من سور التراب وأشراكه . ولا ريب في أننا نستشف هنا نزعة صوفية ، وهي تتغلغل في شعر نسيب ، وتجعل لراثه صورة روحية جديدة في شعرنا ، تخالف الصورة التي رأيناها عند الشعراء السابقين .

(١) المقيلاً : المكان الذي نستريح فيه وقت القيلولة .

الفهرست

صفحة	
٥	مقدمة
١١ - ٧	تمهيد
٧	(١) الرثاء في أدبنا العربي
٩	(٢) في الآداب العالمية
٥٣ - ١٢	الفصل الأول : النذب
١٢	(١) معنى النذب
١٣	(٢) نذب الأهل والأقارب
٣٠	(٣) نذب الشعراء أنفسهم
٣٥	(٤) نذب الرسول صلى الله عليه وسلم وآل البيت الكريم
٤٠	(٥) نذب الدول
٤٧	(٦) نذب البلدان
٨٥ - ٥٤	الفصل الثاني : التأبين
٥٤	(١) معنى التأبين
٥٥	(٢) تأبين الخلفاء والوزراء
٦٢	(٣) تأبين الأشراف والأجواد والقواد
٧٠	(٤) تأبين العلماء والأدباء
٨١	(٥) حفلات التأبين الحديثة
١٠٧ - ٨٦	الفصل الثالث : العزاء
٨٦	(١) معنى العزاء
٨٨	(٢) العزاء في الأهل
٩٦	(٣) العزاء والتهنئة ..
٩٩	(٤) الحياة والموت والخلود

كتب للمؤلف مطبوعة بالدار

- * الأدب العربي المعاصر في مصر
الطبعة الثامنة ٣٠٨ صفحات
- * البارودي رائد الشعر الحديث
الطبعة الرابعة ٢٣٢ صفحة
- * الشعر والفناء في المدينة ومكة لعصر
بنى أمية
- * الطبعة الرابعة ٣٣٦ صفحة
- * البحث الأدبي : طبيعته - ومناهجه -
أصوله - مصادره
- * الطبعة السادسة ٢٧٨ صفحة
- * الشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور
الطبعة الثانية ٢٥٦ صفحة

في الدراسات النقدية

- * في النقد الأدبي
الطبعة السادسة ٢٥٠ صفحة
- * فصول في الشعر بنقده
الطبعة الثانية ٣٦٨ صفحة

في الدراسات البلاغية واللغوية

- * البلاغة : تطور وتاريخ
الطبعة السادسة ٣٨٠ صفحة
- * المدارس النحوية
الطبعة الخامسة ٣٧٦ صفحة
- * تجديد النحو
الطبعة الثانية ٢٨٢ صفحة
- * تيسير النحو التعليمي قديماً وحديثاً مع نهج تجديده
الطبعة الأولى ٢٠٨ صفحة

في مجموعة نوابغ الفكر العربي

- * ابن زيدون
الطبعة الحادية عشرة ١٢٤ صفحة

في الدراسات القرآنية

- * سورة الرحمن وسور قصار
عرض ودراسة
الطبعة الثانية ٤٠٤ صفحات

في تاريخ الأدب العربي

- * العصر الجاهلي
الطبعة الحادية عشرة ٤٣٦ صفحة
- * العصر الإسلامي
الطبعة العاشرة ٤٦٦ صفحة
- * العصر العباسي الأول
الطبعة التاسعة ٥٧٦ صفحة
- * العصر العباسي الثاني
الطبعة السادسة ٦٥٧ صفحة
- * عصر الدول والإمارات (١)
الجزيرة العربية - العراق - إيران
الطبعة الثانية ٦٨٨ صفحة
- * عصر الدول والإمارات (٢)
مصر - الشام
الطبعة الأولى ٨٤٨ صفحة

في مكتبة الدراسات الأدبية

- * الفن ومذاهبه في الشعر العربي
الطبعة العاشرة ٥٢٤ صفحة
- * الفن ومذاهبه في النثر العربي
الطبعة العاشرة ٤٠٠ صفحة
- * التطور والتجديد في الشعر الأموي
الطبعة السابعة ٣٤٠ صفحة
- * دراسات في الشعر العربي المعاصر
الطبعة السابعة ٢٩٢ صفحة
- * شوقي شاعر العصر الحديث
الطبعة العاشرة ٢٨٦ صفحة

في مجموعة فنون الأدب العربي

* الرثاء

الطبعة الثالثة ١١٢ صفحات

* المقامة

الطبعة الخامسة ١٠٨ صفحة

* النقد

الطبعة الرابعة ١١٢ صفحة

* الترجمة الشخصية

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

* الرحلات

الطبعة الثالثة ١٢٨ صفحة

في التراث المحقق

* المغرب في حلى المغرب لابن سعيد

الجزء الأول - الطبعة الثالثة ٤٦٨ صفحة

الجزء الثاني - الطبعة الثالثة ٥٧٢ صفحة

* كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد

الطبعة الثانية ٧٨٨ صفحة

* كتاب الرد على النحاة

الطبعة الثانية ١٥٠ صفحة

* الدرر في اختصار المغازي والسير

لابن عبد البر

الطبعة الثانية ٣٥٦ صفحة

في سلسلة اقرأ

* العقاد

الطبعة الرابعة

* البطولة في الشعر العربي

الطبعة الثانية

* معى

الطبعة الثانية

* الفكاهة في مصر

الطبعة الثانية

١٩٨٧ / ٣٠١٠	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-١٩٩٠-٨	الترقيم الدولي

١ / ٨٧ / ٣٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذه المجموعة

لقد قصد من هذه المجموعة أن تجلو للمقارئ العربى ألواناً من الفنون الأدبية التى عالجها الأدب العربى فى مختلف أقطاره وعصوره . فهى تقف أمام كل فن أدبى فتعالجه فى جزءه أو أكثر من هذه السلسلة التى سيجتمع فيها محصول وافر من فنون الأدب المختلفة التى تكون فى مجموعها ذلك الهيكل الأدبى الضخم الذى شيدته العربية فى تاريخها الطويل .

وقضل هذه المجموعة أنها تعالج الأدب العربى لا على طريقة السين ، ولا على طريقة التقسيم إلى عصور كما ألفنا فى كتب التاريخ الأدبى ... ولكنها تعالج الأدب على مدى ما اتسع فيه من فنون ... فللمقامة موضوع ، وللقصّة موضوع ، وللغزل موضوع ، وللوصف موضوع ... وهكذا تكبر هذه المجموعة على قدر ما فى الأدب العربى من فنون .